جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

من بلاغة التمنى بـ (ليت)
فى الذكر الحكيم

الدكتور
إبراهيم حسن أحمد
أستاذ البلاغة والنقد المساعد فى كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنين بقنا ـ جامعة الأزهر

العدد الخامس عشر (الجزء الأول)
١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمدك اللهم أن جعلت أُنسى فى مناجاتك، ومتعتى فى تأمل عجائب كتابك، ونشوتى فى الكشف عن سرٍّ من أسرار بيانه، وهمتى فى البحث عن عما دق وخفى من وجوه إعجازه، وأُصلى وأُسلم على من رفعت بالقرآن ذكره، فأعجز ببيانك فرسان البيان، وأسر ببلاغة كتابك الإنس والجان.

وبعد:

فإن المعانى التى نعدها من باب التمنى ذات طبيعة خاصة، لأنها من المعانى التى تتعلق بها القلوب، وتشتاق إليها النفوس، سواء أكانت مستحيلة، أم بعيدة، فالمتمنِّى يتعلق بها، ويشتد تعلقه حتى ينفلت من الواقع والممكن إلى الذى مضى وما لا يمكن، ويتعلق بالمستحيل، ويتشبث بخيوط الوهم، ويصير كالظمآن الذى لا يُروى أو يُستبعد ريُّه.

ووراء (ليت) فى أكثر مواقعها ظمأ لا يُروى، فهى تصف آمالاً حبيسة، ورغائب لا سبيل إلى تحقيقها، ولو كانت هذه الأمنيات ممكنة فإنها عند المتمنِّى وفى حس نفسه مما يبعد تحققها؛ لأنها من أشواق الروح وتطلعاتها التى لا تحدها حدود، فالتمنى يبث فيه المتمنِّى حاجات النفس ورغباتها، ويسكب فيه عبراته وأحزانه؛ ترويحا عن النفس وترجمة عما يجرى فى الخاطر.

وتجد هذا الأسلوب فى القرآن عظيم السلطان شديد السيطرة، فكثيراً ما نجده على ألسنة الكافرين يوم القيامة يبثون فيه أحزانهم، ويصور ندمهم وحسرتهم على فوات وقت الإيمان والعمل الصالح، وكثيراً ما يكون مقروناً

بأداة النداء (يا) ذات الصوت المديد الطويل الذى يتناسب مع طول حسرتهم وعمق ندمهم، ففى النداء والتمنى تجسيد لحسرة الكافر وندمه.

لهذا كان المقصود من هذه الدراسة، والدافع لهذا البحث؛ بيان دقائق التمنى فى الذكر الحكيم، وكشف الحجب عما فى (ليت) من لطائف وأسرار، وما تحدثه فى نسق التراكيب من إيحاءات، وما توحى به من أغراض فى الذكر الحكيم، وبخاصة أننى لم أجد أحداً –على حد علمى– خص هذا الموضوع بدراسة فى الذكر الحكيم.

وتبرز أهمية الموضوع فى أن التمنى فى الذكر الحكيم ظاهرة تستحق الدراسة البلاغية، لأن طلب الممتنع: حديث نفس والهة تملكها الذهول واستبد بها اليأس، فاحتجب العقل والوعى، فلم تعد تفرق بين ما هو ممكن وما هو محال، ووراء ذلك إيحاءات ثرية تنمُّ عن نفس محطمة وآمال ضائعة، والبحث –إن شاء الله– يكشف عن هذه الإيحاءات، ويبين أسرارها، ومدى ارتباطها بنفوس أصحابها، والمقامات التى اقتضتها، بما يمثل إضافة فى مجال البحث البلاغى –إن شاء الله–.

هذا: وقد جاءت خطة هذا البحث: (من بلاغة التمنى بـ(ليت) فى الذكر الحكيم) على النحو التالى:

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع، والدافع إليه.

المبحث الأول: (مفهوم التمنى وقيمته البلاغية)، ويتضمن، تحرير مصطلح التمنى فى اللغة، وتحرير مصطلح التمنى عند البلاغيين، والفرق بين التمنى والترجى، والقيمة البلاغية للتمنى.

المبحث الثانى: (التمنى بـ(ليت) ومقاماته فى الذكر الحكيم)، ويتضمن المحاور الآتية، أولاً: المتمنى المستحيل، ويشمل المقامات الآتية: التمنى فى مقام الندم على مخالفة الرسل واتّباع قرناء السوء، والتمنى فى مقام الندم على

فوات الطاعة ووقتها، والتمنى فى مقام الندم على فوات المال وهلاكه، والتمنى فى مقام الندم على الكفر والمعصية، والتمنى فى مقام الخوف من القول الفاضح، والتمنى فى مقام الفرح بالمغفرة والتكريم، ثانياً: المتمنَّى الممكن المستبعد.

الخاتمة : وفيها: أهم نتائج البحث، ثم أهم المصادر والمراجع، ثم الفهرس.

وينبغى أن نؤكد على أن المعالجة البلاغية للموضوعات القرآنية تتضاعف صعوبتها من حيث حاجتها إلى التناهى فى الدقة والالتزام؛ خشية أن يخط القلم ما تزل به القدم، كما أن القرآن الكريم كتاب الله المعجز ، وهو الذى لا تفنى عجائبه، ولا تنقضى غرائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يحيط بأسراره إلا العليم الخبير.

ومن هنا فلا أدعى لنفسى أننى بلغت فى بحثى هذا درجة الكمال، فالكمال لله وحده، ولكنى اجتهدت قدر طاقتى، والله أسأل أن يقيل عثراتى، ويغفر زلاتى، وهو الهادى إلى سواء السبيل.

(ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)

إبراهيم حسن أحمد
أستاذ البلاغة والنقد المساعد فى كلية الدراسات بقنا- جامعة الأزهر

المبحث الأول
مفهوم التمنى وقيمته البلاغية

ويتضمن المحاور الآتية:

- تحرير مصطلح التمنى فى اللغة.
- تحرير مصطلح التمنى عند البلاغيين.
- الفرق بين التمنى والترجى.
- القيمة البلاغية للتمنى.

المبحث الأول
مفهوم التمنى وقيمته البلاغية

تحرير مصطلح التمنى فى اللغة :

الناظر فى معاجم اللغة يجد أن التمنى يدور معناه حول الرغبة والإرادة والطلب.فالتمنى: السؤال للرب فى الحوائج. والمُنى بضم الميم : جمع المُنية، وهو ما يتمنى الرجل. والأُمْنِيَةُ :أُفعولة وجمعها الأمانى ، ويقال: مُنية على فُعلة وجمعها: مُنَى. والتمني: تشهى حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النفس بما يكون وبما لا يكون . وتمنيت الشيء:أحببت أن يصير إلى. وتمنَّى الشيء: أراده.[١]

تحرير مصطلح التمنى عند البلاغيين :

التمنى نوع من الإنشاء الطلبي، وقد عرفه سعد الدين التفتازانى بقوله: "التمنى هو طلب حصول شيء على سبيل المحبة "[٢]، وعرفه ابن يعقوب المغربى بقوله: "هو طلب حصول الشيء بشرط المحبة ونفى الطماعية فى ذلك الشيء[٣] ومن ذلك يتضح أن التمني: هو طلب أمر محبوب مع عدم الطماعية فى حصوله، إما: لكونه مستحيلا- والإنسان كثيرا ما يحب المستحيل ويطلبه- وإما: لكونه ممكنا غير أنه بعيد لا يطمع فى نيله[٤].

والمعانى التى نعدها من باب التمنى تتعلق بها القلوب وتشتاق إليها سواء كانت مستحيلة أم بعيدة، فتمنى الأمر المحبوب الذى لا طمع فيه، لكونه مستحيلا يبدو جليا فى قول الشاعر:

---

(١) القاموس المحيط للفيروزآبادى جـ ٤، ص ٣٩٢، مادة(منى) ، بدون ناشر، لسان العرب لابن منظور، جـ ٥، صـ ٢٩٤، مادة (منى) ، دار صادر بيروت، ١٤١٤ه١٩٩٤م

(٢) مختصر سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح جـ٢، صـ ٢٣٩(ضمن شروح التلخيص) ، طبعة دار السرور، بيروت.

(٣) مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربى، جـ٢، صـ ٢٣٩.

(٤) ينظر: معجم البلاغة العربية، للدكتور/ بدوى طبانة، جـ ٢، صـ٨٥٧، منشورات جامعة طرابلس١٣٩٧هـ١٩٧٧م، دلالات التراكيب: للدكتور/ محمد أبو موسىصـ١٩٤، مكتبة وهبة، ط. الثانية، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م، علم المعانى، للدكتور/ عبد العزيز عتيق، صـ١١٢.ط.دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ١٩٨٥م، علم المعاني: للدكتور/ بسيونى فيود، جـ٢، صـ ١٥٥، ط.أولى.١٤٠٨هـ١٩٨٨م.

ألا لَيْــتَ الشّــبَابَ يَعُــودُ يَوْمًــا فَــأُخْبِرهُ بِمــا فَعَــلَ الْمَشِــيبُ

فالأمر المتمنى فى البيت لا طمع فى حصوله، لأنه مستحيل الوقوع ،لتعلقه بما مضى ، ثم إننا لا نرى الشاعر قصد إلى إبراز رغبته فى عودة الشباب وأيامه الحلوة المرحة فحسب ، بل ضمن ذلك مشاعر الأسى والتحسر والشكوى من الشيب وما صحبه من ضعف فى البدن ، وعجز عن الاستمتاع بالحياة، وإحساس مخيف يلاحقه دائما بالنهاية المحتومة، وعزوف الناس والخلان عنه، فالتمنى فى البيت وسيلة عبر بها الشاعر عن آلامه وضيق نفسه، وصور هذا فى تصريحه بالشكوى فى قوله: (فأخبره بما فعل المشيب).

ومن تمنى المستحيل قول على بن الجهم:

سَــقَى الله لَــيْلا ضَــمّنَا بَعْــدَ فُرْقَــةٍ وَأَدْنَــى فُــؤَادًا مِــنْ فُــؤَادٍ مُعَــذّبِ

فَيَــا لَيْــتَ أنّ اللّيْــلَ أطْبَــقَ مُظْلِمًــا وَأنّ نُجُــومَ الشّــرْقِ لَــمْ تَتَغَــرّبِ[1]

فقد ملأ لقاء الحبيب عليه نفسه، ولم يدع فيها مجالا لفكر أو وعى فأخذ يدعو بالسقيا لليل الذى ضمهما بعد فرقة ، ثم أخذ يتمنى أمرا محالا لا يرجى حصوله، وهو أن يظل الليل مطبقا عليهما بظلامه، وأن تبقى النجوم فلا تغرب[2]، "وهذه أمنية لا سبيل إلى تحقيقها، ولا تجد شيئا يعبث بالقلب كهذه الرغائب التى تعلو النفس فلا تدع فيها مجالا لوعى أو فكر، ويشبه هذا: الدعاء بالسقيا لليل، لا تستطيع أن تتصور كيف تكون سقيا الليل فضلا عن أن تتصور فائدة محققة لها، ومع ذلك لا تستطيع الإفلات من تأثيره"[2].

وتمنى الأمر المحبوب الذى يمكن حصوله ولكنه غير مطموع فيه، لبعد منالة يبدو واضحا فى قول بعض الناس: ليت لى مالا فأحج منه، ليتنى ألقى فلانا فأنتفع بعلمه، والبعد هنا بعد نفسى مرده إلى شعور النفس وإحساسها بذلك الشيء، وقد لا يكون بعيدا بالنسبة للواقع، أو العرف، أو العقل، أو الغير، ومن ذلك قول أمية بن أبى الصلت يعاتب ابنه على عقوقه فيقول:

([1]) ديوان على بن الجهم / ١٧ ، ت خليل مردم بك، ط الثالثة، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.

(١) ينظر: د/ بسيونى عبد الفتاح، علم المعاني، جـ٢، صـ١٥٦.

(٢) د/ محمد أبو موسى، دلالات التراكيب، صـ ١٩٧.

فَلَمّـــا بَلَغْـــتَ السّـــنَّ وَالْغَايَـــةَ الّتِـــي إلَيْهَـــا مَـــدَى مَـــا كُنْـــتُ فِيْـــكَ أُؤَمّـــلُ
جَعَلْـتَ جَزَائِـى مِنْـكَ جبهـا وغلظـة كَأَنّـــكَ أَنْـــتَ الْمُـــنْعِمُ الْمُتَفَضّـــلُ
فَلَيْتَـــكَ إذ لَـــمْ تَـــرْعَ حَـــقّ أَبُـــوّتِي فَعَلْـتَ كَمَـا الْجَـارُ الْمُجَـاوِرُ يَفْعَـلُ[١]

فصيغة التمنى هنا تقطر مرارة وألما، وحسبك أن الأب الذى أحسن إلى ابنـه حتـى وصـل إلى المرحلة التى رجا فيها الأب أن يجنى ثمار غرسه يفاجـأ بخيبـة لآمالـه، ويلقـى مـن ابنـه الجحـود والنكران حتى تصبح معاملته معاملة الجار المجاور أمنية بعيدة المنال، فآثر الشاعر حـرف التمنـى مبرزا الأمر الممكن فى صورة المستبعد، ليريك صورة الابن العاق قبيحة كريهة، ويدمى قلبك بمـرارة شكواه وخيبة مسعاه.

ومثله فى تمنى الممكن البعيد الحصول،إظهارا للشكوى قول المتنبي:

فَيَـا لَيْـتَ مَـا بَيْنِـى وَبَـيْنَ أحِبّتِـي مِـنَ الْبُعْـدِ مَـا بَيْنِـى وَبَـيْنَ الْمَصَـائبِ[٢]

فقد تكاثرت عليه المصائب ولازمته ملازمة دائمة، فى حـين جفـاه أحبتـه وابتعـدوا عنـه، فتمنى أن لو كان أحبته قريبين منه قرب المصائب . وليس قرب الأحبة بالشيء البعيد ، ولكـن طـول الجفاء ولّد لديه شعورا باليأس والمرارة بثـه فـى صـيغة الـتمني، وحسـبك أنـه لا يشـكو مـن حلـول المصائب به ولا يعاف قربها، وإنما يتمنى أن يكون أحبته على نفس الدرجة من القرب، وحينئذ فلن يبالى بما يلقاه من النوائب، فـالتمنى هنـا لـما هـو ممكـن ولكنـه فـى عـداد البعيـد غـير المطمـوع فـى حصوله.[٣]

الفرق بين التمنى والترجى:

تبين فيما سبق أن التمنى فى اصطلاح البلاغيين: هو طلب حصول الشيء على سبيل المحبة مع عدم الطماعية فى حصوله، وقد تضمن هذا الحد قيدين، الأول: اشتراط المحبة، لإخـراج مـا عـدا

---

(١) ينظر الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ٤/ ١٣٣، الدار التونسية للنشر، وعيون الأخبار لابن قتيبة ٣/ ٩٩، شرح د/ مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) ديوان المتنبى / ٢٢٥، المكتبة الثقافية، بيروت.

(٣) ينظر علم المعانى للدكتور/ فريد النكلاوي وآخرين صـ٩١، ٩٠.

التمنى من أنواع الطلب، إذ لا يشترط فيها ذلك، والثانى: عدم الطماعية فى وقوعه، وبه خرج الترجى عند من يرى أنه طلب، لأن المرجو متوقع الحصول، وجمهور البلاغيين على أن الترجى ليس طلبا، وقد حدّه صاحب المطول بقوله: "إنه ارتقاب شيء لا وثوق بحصوله، فمن ثمت لا يقال: لعل الشمس تغرب، ويدخل فى الارتقاب الطمع والإشفاق، فالطمع: ارتقاب المحبوب، نحو: لعلك تعطينا، والإشفاق: ارتقاب المكروه، نحو: لعلى أموت الساعة، وبهذا ظهر أن الترجى ليس بطلب"(١).

والأصل فى الترجى أن يكون فى الممكن المتوقع الحصول بخلاف التمنى الذى يكون فى المستحيل أو الممكن الذى لا يتوقع حصوله، فالترجى فيه طمع بخلاف التمنى، ولقرب معنى الطمع من الرجاء قال الزمخشرى فى(لعل): "وقد جاءت على سبيل الإطماع فى مواضع من القرآن، ولكن إطماع من كريم رحيم إذا أطمع فعل ما يُطمع فيه لا محالة؛ لجرى إطماعه مجرى وعده المحتوم وفاؤه، والإطماع: الإيقاع فى الطمع، وذلك لقرب الطمع من الرجاء، فكأن الإطماع هو الترجية"(٢).

وقد فرق التنوخى بين الترجى والتمنى فذكر أن التمنى يكون معشوقا للنفس والمرجو قد لا يكون كذلك، ويكون المرجو متوقعا والمتمنى قد لايكون كذلك(٣)، وجاء فى الإتقان: " نقل القرافى فى الفروق: الإجماع على أن الترجى إنشاء، وفرق بينه وبين التمنى، بأنه فى الممكن، والتمنى فيه وفى المستحيل، وبأن الترجى فى القريب والتمنى فى البعيد، وبأن الترجى فى المتوقع والتمنى فى غيره، وبأن التمنى فى المعشوق للنفس والترجى فى غيره"(٤).

فإذا كان الممكن غير مطموع فى حصوله كان طلبه تمنيا، وإذا كان الممكن مطموعا فى حصوله ونيله كان طلبه ترجيا وعندئذ تستعمل فيه الألفاظ الدالة على الترجى، ومن ذلك قوله-تعالى-: (وَمَا يُدْرِيكَ

---

(١) المطول للسعد الدين التفتازانى، صـ٢٢٦.

(٢) الكشاف للزمخشرى، جـ١، صـ٢٢٩، وينظر: حاشية السيد على الكشاف، جـ١، صـ٢٢٩، حاشية الشهاب، جـ٢، صـ١٣.

(٣) ينظر الأقصى القريب للتنوخى، صـ٨، ٧.

(٤) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى، ت، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط، القاهرة، دار الحديث، جـ٣، صـ٢٤٥.

لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى)[١]، وقوله-عز وجل-:(فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)[٢].

وكون الممكن مرجو الحصول مطموعا فيه، أو بعيد الحصول لا طمع فيه، مرده إلى نفس المتكلم وإحساسه، فمثلا إذا كنت تطلب حصوله وتتوقعه وتطمع فى وجوده ونيله قلت مترجيا: لعل لى مالا فأحج به ، وإن كنت غير متوقع له ولا طمع لك فى حصوله ونيله قلت متمنيا: ليت لى مالا فأحج به. يقول الدكتور/ أبو موسى:" التمنى هو طلب حصول الشىء على سبيل المحبة، والشىء المطلوب يكون فى التمنى دائما غى متوقع، ويدخل فيه ما لا سبيل إلى تحقيقه، فإذا كان المطلوب الممكن متوقعا كان الكلام ترجيا والعبارة عن ذلك تكون بـ(لعل، وعسى)، فإذا قلت: لعل زيدا يجىء كان وراء ذلك إحساس بأن مجىء زيد من الأمور المتوقعة. الفرق بين التمنى والترجى فى المطلوب الممكن هو فى حقيقته فرق بين نوعين من أنواع الإحساس، أما غير الممكن فلا يأتى فيه الترجى"([٣]).

القيمة البلاغية للتمنى:

التمنى طلب قلبى، أو هو كما يقول أهل اللغة: حديث النفس وترجمة عما يجرى فى الخاطر، فالتمنى يبث فيه المتمنِّى حاجات النفس ورغباتها، ويسكب فيه عبراته وأحزانه، وقد أحسن ابن يعقوب المغربى الكشف عن الحالة النفسية للمتمنِّى، والأغراض التى يرمى إليها من وراء طلبه لما يدرك أنه لايكون فقال: " إن أصل التمنى إظهار الرغبة فى الفائت مضيا أو استقبالا، إما لمجرد الاعتذار والاستعطاف للمخاطب ليرحم المتمنِّى، وإما لمجرد موافقة الخاطر والترويح عن النفس"[٤].

---

(١) عبس: ٤، ٣.

(٢) المائدة: ٥٢.

(٣) دلالات التراكيب، صـ١٩٤.

(٤) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى، جـ٢، صـ٢٤٠.

إنها لمحة ذكية تجاوز بها ابن يعقوب حقيقة التمنى إلى ما يهدف إليه المتمنى من الشكوى والاستعطاف والاعتذار وما يجده من راحة النفس، فما التمنى سوى زفرات يطلقها مهموم يائس، ونفثات مصدور يروح بها عن نفسه.

والتمنى أسلوب يستحق الدراسة البلاغية سواء أدى بالحرف الموضوع له أم بغيره، لأن طلب الممتنع حديث نفس والهة تملكها الذهول واستبد بها اليأس فاحتجب العقل والوعى فلم تعد تفرق بين ما هو ممكن وما هو محال ووراء ذلك إيحاءات ثرية تنم عن نفس محطمة وآمال ضائعة.

يقول الدكتور/محمد أبو موسى: "إن المعانى التى نعدها من باب التمنى ذات طبيعة خاصة فهى من المعانى التى تتعلق بها القلوب وتشتاقها سواء أكانت بعيدة أم مستحيلة، ثم إن البعد فيها ربما لا يكون بعدا بالنسبة للواقع أو العرف أو العقل، وإنما هو بعد من حيث إحساس النفس به، تقول: ليتنى أفعل كذا أو أقدر علية، أو ليتنى ألقى فلانا فتفيد بذلك أنك تحس ببعد هذا الفعل أو هذه القدرة أو هذا اللقاء، وقد يكون ذلك كله غير بعيد فى واقع الأمر أو عند غيرك، ولكن شدة رغبتك فيه أوهمتك أنه مستبعد، وهذه حالة من حالات النفس، وهى ليست متعارضة مع ما نشير إليه من أن شدة الرغبة وعظيم التعلق يوهم أن غير الواقع واقع وأنه دنا فى الأوهام حتى لتكاد تلمسه الأيدى، لأن هذه الحالة الثانية أشبه بالحلم الذى يدنى البعيد، والحالة الأولى حالة إحساس بالبعد ، ويتضح ذلك بتحليل السياق ، فقد يغلب على النفس الإحساس باليأس فتستبعد القريب، وقد يغلب الشعور بالأمل فيقرب البعيد.

وطبيعة المعنى فى باب التمنى مما يجعله من الأساليب ذات الوقع والتأثير، لأنك فى مواقعه تجد نفسا ظمئة إلى شىء ثم إن ظمأها ظمأ لا يروى أو يستبعد ريه..،إن إيغال الرغائب فى البعد مما يزيد النفس بها تحرقا واستعارا....،ورغائب النفوس ومشتهياتها ليست مقيدة بحدود الإمكان، وفرق بين الآمال التى يراد تحقيقها واتخاذ الوسائل إليها وهى بالطبع خاضعة للتفكير والإمكان وبين أشواق الروح وتطلعاتها التى لا تحدها حدود.

وقد أدرك ابن يعقوب المغربى القيمة النفسية لهذا الأسلوب حين ذكر أن تمنى مالا سبيل إليه قد يكون للاستعطاف أو للاعتذار وما شابه ذلك، وقد يكون–وهذا هو المهم– (لمجرد موافقة الخاطر والترويح عن النفس) أى: إن التعبير عن هذه المتمنيات حين لا يكون القصد منه إحداث التأثير فى موقف معين يكون الغرض منه هو نفس التعبير والترجمة عن هذه الخواطر الحبيسة، والغناء بهذه الأحلام البعيدة فإن ذلك مما يروح عن النفس ويطرح عنها أثقالا وأوزارا"[1].

وستبرز الدراسة–إن شاء الله– القيمة البلاغية للتمنى بصورة أشمل وأوسع عند الحديث عن (ليت) ومقاماتها فى الذكر الحكيم، لتجلى قيمتها وأسرارها البلاغية فى ثوب التحليل والتطبيق على البيان القرآنى المعجز.

(١) دلالات التراكيب، صـ١٩٥ ١٩٩.

المبحث الثانى

التمنى بـ(ليت) بلاغته ومقاماته فى القرآن الكريم

ويتضمن المحاور الآتية:

أولا: المتمنَّى المستحيل.

ويشمل المقامات الآتية:

- **التمنى فى مقام الندم على مخالفة الرسل واتباع قرناء السوء.**
- **التمنى فى مقام الندم على فوات الطاعة ووقتها.**
- **التمنى فى مقام الندم على فوات المال.**
- **التمنى فى مقام الندم على الكفر والمعصية.**
- **التمنى فى مقام الخوف من القول الفاضح.**
- **التمنى فى مقام الفرح بالمغفرة والتكريم.**

ثانيا: المتمنَّى الممكن البعيد.

المبحث الثانى
التمنى بـ(ليت) ومقاماته فى القرآن الكريم

ليت: حرف يفيد التمنى عند النحويين والبلاغيين "تصير به نسبة الكلام إنشاء بحيث لا يحتمل الصدق والكذب، ويفيد أن المتكلم طالب لتلك النسبة، فلا يقال للمتكلم بقولنا: ليت لى مالا أحج به، إنه صادق أو كاذب فى نسبة الثبوت للمال، لأنه متمن لتلك النسبة، لا حاك لتحقيقها فى الخارج، وإن كانت عبارة ما وضعت له مستلزمة لخبر، وهو أن هذا المتكلم يتمنى تلك النسبة، ولهذا يقال: الإنشاء يستلزم الإخبار"(١).

و(ليت) : هى الأداة الموضوعة أصالة لمعنى التمنى، وقد وردت فى القرآن الكريم أربعة عشرة مرة(٢).والتمنى بها يكون فى الممكن الذى لا يتوقع حصوله، ويكون فى غير الممكن وهو المستحيل، يقول السكاكى: "تقول: ليت زيدا جاءنى، فتطلب غير الواقع فى الماضى واقعا فيه مع حكم العقل بامتناعه، ولبت الشباب يعود، مع جزمك أنه لا يعود، وليت زيدا يأتينى فيحدثنى فى حالة لا تتوقعها، ولا طمع لك فيها...، والقدر المشترك بين الثلاثة: التوقع"(٣).

يريد السكاكى أن يقول: إن المتمنَّى قد يكون مستحيلا، وقد يكون ممكنا ولكنه بعيد الحصول. وسأبدأ أولا بذكر المتمنَّى المستحيل فى القرآن الكريم، لكثرته، ثم أتبعه بذكر المتمنَّى الممكن البعيد الحصول.

أولا: المتمنى المستحيل:

يرد المتمنى المستحيل كثيرا فى القرآن الكريم، وتتنوع مقاماته، فأحيانا يرد محكيا عن أهل الدنيا، وأحيانا يرد محكيا عن أهل الآخرة، وتارة يرد محكيا عن أهل الإيمان، وأخرى محكيا على ألسنة المنافقين والكافرين، وأهل النار، وفى كل هذه الأحوال تتنوع أغراض التمنى ومقامات

(١) ينظر: مواهب الفتاح، وحاشية الدسوقى، (شروح التلخيص) جـ٢، صـ٢٣٨

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقى، صـ٦٥٥.

(٣) مفتاح العلوم للسكاكى، صـ١٤٦، ينظر: عروس الأفراح للسبكى، جـ٢، صـ٢٣٨.

وروده، وسأتناول هنا التمنى المستحيل تحت مقاماته التى ورد فيها، فنسأل الله–تعالى– العون والسداد.

التمنى فى مقام الندم على مخالفة الرسل واتباع قرناء السوء:

قال –تعالى–: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً، يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً)[1].

تصور الآيات الكريمة هول يوم القيامة وكربه بما يحدث فيه للظالم من شدة الندم حيث يتمنى ما يعلم أنه مستحيل لا سبيل لتحقيقه، لأنه – كما قال السكاكى: "يطلب غير الواقع فى الماضى واقعا فيه مع حكم العقل بامتناعه"[2]، إنه يتمنى أن لو أطاع الرسول، ويتمنى أن لو لم يطع قرين السوء حتى ينجو من هول ما يرى.

يقول الدكتور/ أبو موسى: "ولا يخطئك أن تحس اللهفة المكروبة وراء قوله: (يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا) وكيف تتعلق نفسه بما فات؟ وكيف هيأ لهذه الصرخة الملتهبة بهذا الصوت المنبه واللافت بقوله: (يا)؟..،ثم قوله: (يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا)، تجد الصرخة هنا أكثر حدة، لأن الندم هناك على أنه لم يتخذ سبيل الذين آمنوا، والندم هنا على أنه اتخذ سبيل المضلين، وهو ليس رفضا لسبيل الذين آمنوا فحسب، وإنما هو فوق ذلك معاندة له وذهاب فى الوجه المقابل"[3].

أرأيت كيف جسد التمنى شدة ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق الذى لا مرية فيه، وسلك سبيلا أخرى غير سبيل الرسول، واتخذ من المضلين خليلا؟ إنها صرخة النادم المتحسر، ولطمة المفجوع اليائس الذى احتجب عقله ووعيه فلم يفرق بين ما هو ممكن وما هو محال، ووراء ذلك إيحاءات ثرية تنم عن نفس محطمة وآمال ضائعة وأشلاء ممزقة.

وقد تجاوبت صيغة التمنى التى تكررت مسبوقة بأداة النداء مع الكناية فى قوله –تعالى–: (ويوم يعض الظالم على يديه) فى تجسيد الإحساس بالندم والحسرة، إنه لا يعض يدا واحدة ، ولا

---

(١) الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩.

(٢) مفتاح العلوم، صـ١٤٦.

(٣) دلالات التراكيب، صـ٢٠٠.

أنامل يد واحدة، ولا أنامل يديه، ولا يعض يدا واحدة، بل يعض على يديه كلتيهما، أرأيت ما بلغ الظالم من الحسرة والندم وتمنى ما فات ولا سبيل إلى تحقيقه؟.

يقول الزمخشرى: "عض اليدين والأنامل والسقوط فى اليد وأكل البنان وحرق الأسنان والأرم وقرعها: كنايات عن الغيظ والحسرة، لأنها من روادفها، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف، فيرتفع الكلام به فى طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده فى نفسه من الروعة والاستحسان مالا يجده عند لفظ المكنى عنه"[١].

والعض: الشد بالأسنان على الشيء ليؤلمه أو ليمسكه[٢]، وحقه التعدية بنفسه إلا أنه كثرت تعديته بـ(على)، لإفادة تمكن العاض من المعضوض إذا قصدوا عضا شديدا كما فى هذه الآية[٣].

ولسائل أن يسأل هل يوجد فرق بين عض اليدين وعض الأنامل وكلاهما كناية عن الندم والحسرة؟ والإجابة تظهر بوضوح إذا أنعمنا النظر فى كنايتين من الذكر الحكيم متشابهتين هما قوله –تعالى–: ((وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ....)، وقوله –تعالى–: (وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ)[٤]، فكلتا العبارتين "تدل على الألم والحسرة فهما –إذن– كنايتان عن صفة، وقد تفاوتتا فى تصوير المعنى، لأن عض الأنامل دون عض الأيدى ، وذلك التفاوت راجع إلى تفاوت المقامين، فالمنافقون يتحسرون عندما يرون قوة المسلمين وظفرهم وتتابع انتصارهم، وهم على ما هم عليه من النفاق لا حول لهم ولا قوة، وهذا خطأ يمكن إصلاحه بأن يؤمنوا ويتبعوا الهدى، أما الظالم فحسرته أشد، وألمه أوقع، لأنه يكون فى وقت لم تبق فيه فرصة لمستتيب، ولا نفع لنادم، ولهذا يمكن فهم

(١) الكشاف، جـ٣، صـ٢٧٦.ط، دار الكتاب العربى .

(٢) لسان العرب، مادة (عضض) .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، جـ١٩، صـ١٢.

(٤) آل عمران: ١١٩.

المبالغة فى الكناية الأولى بالعض على الأيدى دون الأنامل، فكل من العبارتين وقع موقعه من غير ما قصور أو فضول، وهذه سمة من سمات الإعجاز البيانى فى القرآن"[١].

و(ال) فى (الظالم) يجوز أن تكون للجنس فتتناول كل ظالم من المشركين قبل من غيره فى معصية الله-تعالى- وعلى هذا فالمعنى: أنه تمنى أن لو سلك طريق الرسول وهو الإيمان، وتكون (ال) فى الرسول للجنس، لأن كل ظالم قد كلف اتباع ما جاء به رسوله إلى أن جاءت رسالة الإسلام فنسخت ما قبلها فلا يقبل بعد مجىء رسولنا -صلى الله عليه وسلم- دين غير الذى جاء به.

ويجوز أن تكون (ال) فى (الظالم) للعهد، ويراد به عقبة بن أبى معيط، وفلان هو: أمية بن خلف، فقد ورد فى سبب نزول الآية "أن عقبة بن أبى معيط، وكان صديقا لأمية بن خلف الجمحى، ويروى لأبى بن خلف أخ أمية، وكان قد صنع وليمة فدعا إليها قريشا، ودعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم، وكره عقبة أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش أحد فأسلم ونطق بالشهادتين، فأتاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأكل من طعامه، فعاتبه خليله أمية بن خلف، أو أبى بن خلف -وكان غائبا-، فقال عقبة: رأيت عظيما ألا يحضر طعامى رجل من أشراف قريش، فقال له خليله: لا أرضى حتى ترجع وتبزق فى وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت، ففعل عدو الله ما أمره به خليله، فأنزل الله -عز وجل- ((وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ)"[٢].

وقد قتل على بن أبى طالب -رضى الله عنه- عقبة، وذلك أنه كان فى الأسرى يوم بدر فأمر النبى -صلى الله عليه وسلم- بقتله، فقال: أأقتل دونهم؟ فقال: نعم، بكفرك وعتوك، فقال من للصبية؟ فقال: النار، فقام على -رضى الله عنه- فقتله، وأمية قتله النبى -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد، فكان هذا من دلائل نبوته، لأنه خبر عنهما بهذا فقتلا على الكفر، ولم يُسميا فى الآية، لأنه أبلغ فى الفائدة، ليُعلم أن هذا سبيل كل ظالم قبل من غيره فى معصية الله -عز وجل-[٣].

---

(١) خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية للدكتور/ عبد العظيم المطعنى، جـ٢، صـ ٣٩٩.

(٢) أسباب النزول للواحدى، صـ٢٧٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبى، جـ٧، صـ٢٥.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى، جـ٧، صـ٢٥.

والمضارعة فى قوله –تعالى–: (يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) تصور تجدد هذا القول المتمنَّى على لسان الظالم فى كل لحظة، فما إن ينتهى من هذا القول النادم حتى يجدد الصياح به تارة أخرى، وفى هذا ما فيه من الدلالة على شدة التحسر والندم والتعلق بالمستحيل خوفا؛ وفزعا من الهول المنظور المرتقب.

والتنكير فى قوله (سَبِيلاً) يفيد الإفراد أو النوعية، فالظالم يوم القيامة يتمنى أن لو صحب الرسول وسلك معه طريقا واحدا، هو طريق الحق والهداية، ولم تتشعب به طرق الضلال والغواية، أو: ليتنى حصلت لنفسى فى صحبة الرسول سبيلا وأطعته طاعة ما فى الأعمال التى دعانى إليها، وذلك لما انكشف للظالم فى هذا اليوم من أن كل من أطاع الرسول –ولو لحظة– حصلت له سعادة بقدرها. يقول البيضاوى: "(لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) طريقا إلى النجاة أو طريقا واحدا"[(١)].

واتخاذ السبيل: أخذه، وأصل الأخذ: التناول باليد فأطلق هنا على قصد السير..،و(مع الرسول) أى: متابعا للرسول، كما يتابع المسافر دليلا يسلك به أحسن الطرق وأفضاها إلى المكان المقصود، وإنما عدل عن الإتيان بفعل الاتباع ونحوه بأن يقال: يا ليتنى اتبعت الرسول ، إلى هذا التركيب المطنب ، لأن فى هذا التركيب تمثيل هيئة الاقتداء بهيئة مسايرة الدليل تمثيلا محتويا على تشبيه دعوة الرسول بالسبيل ، ومتضمنا تشبيه ما يحصل عن سلوك ذلك السبيل من النجاة ببلوغ السالك إلى الموضع المقصود، فكان حصول هذه المعانى صائرا بالإطناب إلى الإيجاز، وأما لفظ (المتابعة) فقد شاع إطلاقه على الاقتداء، فهو غير مشعر بهذا التمثيل، وعلم أن هذا السبيل سبيل نجاح من تمناه، لأن التمنى طلب الشىء المحبوب العزيز المنال[(٢)].

والنداء الثانى فى قول الظالم هو (يَاوَيْلَتي)، وهى الهلكة، فالظالم ينادى هلاكه وموته، ويطلب حضوره بعد تنزيله منزلة من ينادى، ولا يكون طلب الموت إلا ممن كان فى حال أشد منه،

(١) تفسير البيضاوى، جـ٦، صـ٤٢٠.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، جـ١٩، صـ١٣.

فهذه الكلمة: كلمة تحزن وتحسر[١]، ويقول الزمخشرى: "الرجل ينادى ويلته، وهى هلكته، يقول لها: تعالى فهذا أوانك"[٢].

والتمنى الثانى فى قول الظالم هو: (لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً)، وفلان: كناية عن الأعلام، والمقصود بالكناية هنا معناها اللغوى لا مصطلح البلاغيين، فإن أريد بالظالم: عقبة، فالمعنى: ليتنى لم أتخذ أبَيًّا خليلا، وكنى عنهما ولم يصرح باسمهما فى الآية، لأنه أبلغ فى الفائدة، ولئلا يكون هذا الوعد مخصوصا بهما، ولا مقصورا عليهما، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما، وإن أريد بالظالم: الجنس، فكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم لا محالة فجعل كناية عنه[٣].

يقول ابن عاشور: "وإنما تمنى أن لا يكون اتخذه خليل دون تمنى أن يكون عصاه فيما سول له ، قصدا للاشمئزاز من خلته من أصلها إذ كان الإضلال من أحوالها، وفيه إيماء إلى أن شأن الخلة: الثقة بالخليل وحمل مشورته على النصح، فلا ينبغى أن يضع المرء خلته إلا حيث يوقن بالسلامة من إشارات السوء"[٤].

وجملة: (لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي) تعليلية تفيد توضيح وتعليل تمنيه المذكور، وصدرت بلام القسم؛ تأكيدا لبيان خطئه وتجسيدا لندمه وحسرته، أى: والله لقد أضلنى[٥]، وفى هذا إشعار بأن ما يصدر عن الظالمين لا فائدة منه، فما هو إلا بكاء على هداية ضيعوها وأهواء اتبعوها.

---

(١) ينظر: روح المعانى للألوسى، جـ٦، صـ١٦، ط، دار الفكر، بيروت، ومن أسرار النداء فى القرآن للدكتور/ بغدادى الصحابى، صـ٢٥٣.

(٢) الكشاف، جـ٣، صـ٢٧٦.

(٣) ينظر: الكشاف، جـ٣، صـ٣٢٧، وتفسير البيضاوى وحاشية الشهاب عليه، جـ٦، صـ٤٢٠ وتفسير النسفى، جـ٣، صـ١٦٤.

(٤) التحرير والتنوير، جـ١٩، صـ١٤.

(٥) ينظر: نداء غير العاقل فى القرآن للدكتور/ شومان، صـ٨٩.

والإضلال عن الذكر معناه: "سول لى الانصراف عن الحق. والضلال: إضاعة الطريق وخطؤه بحيث يسلك طريقا غير المقصود فيقع فى غير المكان الذى أراده...، ويستعار الضلال للحياد عن الحق والرشد إلى الباطل والسفه، كما يستعار ضده وهو الهدى، الذى هو إصابة الطريق لمعرفة الحق والصواب، حتى تساوى المعنيان الحقيقيان والمعنيان المجازيان لكثرة الاستعمال، ولذلك سمى الدليل الذى يسلك بالركب الطريق المقصود: هاديا، والإضلال هنا مستعار للصرف عن الحق، لمناسبة استعارة السبيل لهدى الرسول، وليس مستعملا هنا فى المعنى الذى غلب على الباطل بقرينة تعديته بحرف (عن) فى قوله: (عن الذكر) فإنه لو كان الإضلال هو تسويل الضلال لما احتاج إلى تعديته، ولكن أريد هنا متابعة التمثيل السابق، ففى قوله: (أضلنى) مكنية تقتضى تشبيه الذكر بالسبيل الموصل إلى المنجى، وإثبات الإضلال عنه تخييل كإثبات الأظفار للمنية، وإذا ظرف للزمن الماضى، أى: بعد وقت جاءنى فيه الذكر، والإتيان بالظرف هنا دون أن يقال: بعد ما جاءنى، أو بعد أن جاءنى، للإشارة إلى شدة التمكن من الذكر، لأنه قد استقر فى زمن وتحقق"[1].

وجملة: (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً) تذييل من كلام الله –تعالى– وهذا التذييل مؤكد لمفهوم جملة التمنى، وقد أبانت جملة التذييل عن أن هذا الإضلال من عمل الشيطان، فهو الذى يسول لخليل الظالم إضلال خليله، لأن الشيطان خذول للإنسان مجبول على شدة خذله، وفى هذا تنبيه لكل الناس أن يأخذوا حذرهم من هذا الخذول، حتى لا يقفوا يوم القيامة موقف الظالم المتمنى للمستحيل النادم على ما فات.

☼ ☼ ☼

ومن التمنى فى مقام الندم على مصاحبة قرناء السوء قوله –تعالى– ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ

(١) التحرير والتنوير، جـ١٩، صـ١٦، ١٥.

مُهْتَدُونَ، حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ، وَلَنْ يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)[1].

الآيات الكريمة تصور مشهدا دنيويا متصلا بمشهد أخروى من مشاهد يوم القيامة، يعلن فيه الكافر ندمه حيث لا ينفعه الندم، ويصرخ متمنياً أن لو كان بينه وبين قرين السوء بعد ما بين المشرق والمغرب، وتلك أمنية عزيزة المنال، مستحيلة الحصول، لتعلقها بما مضى وفات.

والعشا: سوء البصر بالليل والنهارن، يكون فى الناس والدواب والإبل والطير، وقيل هو ذهاب البصر، وقيل: هو ألا يبصر بالليل، وقيل العشا يكون بسوء البصر من غير عمى..، قال أبو إسحاق: ومعنى الآية: أن من أعرض عن القرآن وما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلين نعاقبه بشيطان نقيضه له حتى يضله ويلازمه قرينا له، فلا يهتدى: مجازاة له حين آثر الباطل على الحق المبين[2].

والعشا عن ذكر الرحمن: هو التعامى والإعراض عن القرآن، وإضافة الذكر إلى (الرحمن) دون غيره من أسمائه –تعالى– إشعار بأن نزوله رحمة للعالمين، وفى الإضافة تشريف وتكريم وتعظيم لشأن الذكر[3]، والمعنى: أن من يعرض عن ذكر الرحمن وينحاز إلى المضلين يعاقبه الله – تعالى– على كفره وإعراضه بأن يتيح له شيطانا يستولى عليه ويمنعه من الحلال ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية، ولا يزال يوسوس له ويغويه، "وهذا عقاب على الكفر بالختم وعدم الفلاح، كما يقال: إن الله –تعالى– يعاقب على السيئة بمزيد اكتساب السيئات"[4].

وتبدو الدلالة على الدوام والثبوت واضحة فى قوله –تعالى–: (فهو له قرين)، يقول ابن عاشور: "وجىء بالجملة المفرعة جملة اسمية، للدلالة على الدوام، أى: فكان قرينا مقارنة ثابتة

(١) الزخرف: ٣٦–٣٩.

(٢) لسان العرب مادة: (عشا) ، .

(٣) ينظر: روح المعانى، جـ٢٥، صـ١٢٤، التحرير والتنوير، جـ٢٥، صـ٢٠٩.

(٤) روح المعانى: جـ٢٥، صـ١٢٥.

دائمة، ولذلك لم يقل: نقيض له شيطانا قرينا له، وقدم الجار والمجرور على متعلقه فى قوله: (له قرين) للاهتمام بضمير (من يعش عن ذكر الرحمن)، أى: قرين له مقارنة تامة".[١]

والضمير المنصوب فى (وإنهم) عائد إلى الشيطان، والضمير فى (ليصدونهم) عائد إلى (ومن يعش)، وقد جمع الضميران للمعنى، إذ المراد جنس العاشى والشيطان المقيض له، يقول الزمخشرى: "فإن قلت: لم جمع ضمير(من) وضمير الشيطان فى قوله: (وإنهم ليصدونهم)؟ قلت: لأن (من) مبهم فى جنس العاشى، وقد قيض له شيطان مبهم فى جنسه، فلما جازا أن يتناولا لإبهامهما غير واحدين جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعا"[٢].

وتبرز عناصر التأكيد فى قوله تعالى-: (وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون)، متلائمة تمام التلاؤم مع أحوال هؤلاء العاشين عن ذكر الرحمن، فهم ينكرون أنهم وقرناؤهم فى ضلال، ومن هنا أكد لهم الخبر بـ(إن) واللام، "وقد مثلت حالة الذين يعشون عن ذكر الرحمن وحال مقارنة الشياطين لهم، بحال من استهدى قوما ليدلوه على طريق موصل لبغيته، فضللوه وصرفوه عن السبيل، وأسلكوه فى فيافى التيه غشا وخديعة وهو يحسب أنه سائر إلى حيث يبلغ طلبته"[٣]، وفى هذا ما فيه من التحذير لأهل الإيمان من اتِّباع الشيطان فى غوايته وإضلاله، وترهيب وتخويف لأهل الكفر من عواقب إعراضهم وتعاميهم واتباعهم لطريق الشيطان وتركهم لسبيل الهدى.

ولا يخفى ما فى صيغة المضارعة فى الأفعال الأربعة: (يعش، نقيض، يصدونهم، يحسبون) من الدلالة على التجدد والاستمرار، يقول الألوسى: "وصيغة المضارع فى الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجددى لقوله -تعالى- (حتى إذا جاءنا) فإن (حتى) وإن كانت ابتدائه داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضى حتما أن تكون غاية لأمر ممتد، وأفرد الضمير فى (جاءنا)

---

(١) التحرير والتنوير: جـ٢٥، صـ٢١١.

(٢) الكشاف: جـ٤، صـ٢٥٢، وينظر: تفسير البيضاوى: جـ٧، صـ٤٤٣.

(٣) التحرير والتنوير: جـ٢٥، صـ٢١٢.

وما بعده، لما أن المراد حكاية مقالة كل واحد من العاشين، لتهويل الأمر وتفظيع الحال، والمعنى: يستمر أمر العاشين على ما ذكر حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة".[١]

وجملة: (قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين)، جواب للشرط، والقائل هو العاشى، يقول ذلك للشيطان،أى: ياليت كان فى الدنيا بينى وبينك بعد المشرقين، أى: مثل بعد ما بين المشرق والمغرب فى أنهما لا يجتمعان أبدا، لما بينهما من التباعد، والتمنى هنا يقطر حسرة وألما، كأنه قال: ليتنى لم أكن صحبتك ولا عرفتك ولا كانت بين وبينك صلة ولا تقارب، ليتنا كنا فى التباعد كأن أحدنا فى المشرق والآخر فى المغرب لا يلتقيان ولا يتقاربان، وهذا القول كما يقول البقاعى: جاء "تندما وتحسرا لا انتفاع له به، لفوات محله وهو دار العمل"[٢].

ويقول الزمخشرى: "(ياليت بينى وبينك بعد المشرقين)، يريد المشرق والمغرب فغلّب، كما قيل: العمران والقمران، فإن قلت: فما بعد المشرقين؟ قلت: تباعدهما، والأصل بعد المشرق من المغرب، والمغرب من المشرق، فلما غلّب وجمع المفترقين بالتثنية أضاف إليهما البعد".[٣].

فالمشرقان كما قال الزمخشرى هما: المشرق والمغرب، وغلب اسم المشرق على المغرب، لأنه أكثر خطوراً بالأذهان، لتشوق النفوس إلى إشراق الشمس بعد الإظلام، وفى قوله: (بعد المشرقين) إيجاز: حيث نابت الكلمتان مناب ست كلمات هى: بعد المشرق من المغرب،وبعد المغرب من المشرق[٤]، وهذا الإيجاز يتناسب مع حال العاشى يوم القيامة، فهو يصرخ متمنيا، وتتقطع أنفاسه حسرة وندما فلا يستطيع بسط الكلام وإطالته، وفى قوله: (فبئس القرين) مبالغة من العاشى فى ذم قرينه، لأنه كان سبب إيراده النار، والمخصوص بالذم محذوف، أى: فبئس القرين أنت.

---

(١) روح المعانى: جـ٢٥، صـ١٢٧، ١٢٦، وينظر: حاشية الجمل، جـ٤، صـ٨٦.

(٢) نظم الدرر: جـ١٧، صـ٤٣٠.

(٣) الكشاف: جـ٤، صـ٢٥٢، وينظر: حاشية الجمل: جـ٤، صـ٨٦.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، جـ٢٥، ص٢١٣.

وبعد هذا التمنى اليائس النادم يأتى قوله –تعالى–: (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون)، أى: لن ينفعكم اشتراككم فى العذاب بالتأسى كما ينفع الاشتراك فى مصائب الدنيا فيتأسى المصاب بمثله، يقول الألوسى: "لن ينفعكم كونكم مشتركين فى العذاب كما ينفع الواقعين فى الأمر الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم فى تحمل أعبائه، وتقاسمهم لشدته وعنائه،وذلك أن كل واحد منكم به من العذاب مالا تبلغه طاقة، أو لن ينفعكم ذلك من حيث التأسى، فإن المكروب يتأسى ويتروح بوجدان المشارك وهو الذى عنته الخنساء بقولها:

يُذَكِّرُنِى طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذْكُرُهُ بِكُلِّ مَغِيبِ شَمْسِ
وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِى عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِى
وَمَا يَبْكُوْنَ مِثْلَ أَخِى وَلَكِن أُعَزِّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّى

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم، ولا يروحهم، لعظم ما هم فيه"[(١)].

ويذكر الزمخشرى رأيان فى فاعل (ولن ينفعكم) فيقول: "(أنكم) فى محل الرفع على الفاعلية، يعنى: ولن ينفعكم كونكم مشتركين فى العذاب كما ينفع الواقعين فى الأمر الصعب اشتراكهم فيه، لتعاونهم فى تحمل أعبائه وتقاسمهم لشدته وعنائه، وذلك أن كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقة، ولك أن تجعل الفاعل للتمنى فى قوله: (يا ليت بينى وبينك) على معنى: ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمنى مباعدة القرين"[(٢)].

وعلى هذا تكون جملة: (أنكم فى العذاب مشتركون)، تعليل لنفى النفع، أى: لا ينفعكم التمنى، لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم فى العذاب كما كنتم مشتركين فى سببه فى الدنيا[(٣)]، وفى هذا تيئيس لهم يضاف إلى أمنيتهم وما فيها من الحسرة والندم.

وبعد: فإن للإنسان قرينا من الإنس وقرينا من الجن، وقد عرضت سورة الفرقان ندم الظالم وحسرته على صداقته لخليله من بنى الإنس الذى صده عن الهدى بعد إذ جاءه وتمنيه أن لو لم يكن

---

(١) روح المعانى: جـ٢٥، ص١٢٩.

(٢) الكشاف: جـ ٤، صـ٢٥٢.

(٣) ينظر: روح المعانى: جـ٢٥، صـ١٢٨.

صادقه، وبقى الوجه الثانى للقرين وهو شيطان الجن، وقد أبرزته سورة الزخرف حين صورت ندم الظالم وتمنيه أن لو كان بينه وبين قرينه من الجن بعد ما بين المشرق والمغرب، وقد تكاملت الآيات فى السورتين فى عرض هذا المشهد بشقيه، تحذيرا من وسوسة شياطين الإنس والجن حتى لا يورد الإنسان نفسه هذا المورد، وحتى يرتدع قرناء السوء الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، فها هو ذا حالهم يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضا.

* * *

التمنى فى مقام الندم على فوات الطاعة ووقتها:

قال –تعالى–: ({كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)[1].

تصور الآيات الكريمة ما يعرض للأرض فى بداية اليوم الآخر من دك متتابع ينهار على إثره كل ما على وجهها من دور وجبال وغير ذلك، فالدك: هدم الجبل والحائط ونحوهما، والدك: حط المرتفع بالدك والتسوية[2]، والمعنى: إذا سويت الأرض تسوية بعد تسوية ولم يبق على وجهها شيء حتى صارت كالصخرة الملساء، وتكرير الدك "للدلالة على الاستيعاب، فليس الثانى تأكيدا للأول بل ذلك نظير الحال فى نحو قولك: جاءوا رجلاً رجلاً، وعلمته الحساب بابا بابا، أى: إذا دكت الأرض دكا متتابعا"[3].

ومعنى (وجاء ربك)، أى: "ظهر سبحانه للخلق هناك...، وقيل: الكلام على حذف المضاف للتهويل، أى: وجاء أمر ربك وقضاؤه –سبحانه–، واختار جمع من المفسرين أنه تمثيل لظهور آيات اقتداره –تعالى– وتبين آثار قدرته –عز وجل– وسلطانه –عز سلطانه–، مثلت حاله –

(١) الفجر: ٢١- ٢٤.

(٢) لسان العرب، مادة (دكك) .

(٣) روح المعانى: جـ٣٠، صـ٢٩٩.

سبحانه- فى ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر لحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم"[١].

وأل فى (والملك) للجنس، أى: جنس الملائكة، فيشمل جميع الملائكة، وقوله: (صفا صفا)، "أى: مصطفين، أو ذوى صفوف، فإنه قيل: ينزل يوم القيامة ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف بحسب منازلهم ومراتبهم محدقين بالجن والإنس"[٢].

أما المجىء بجهنم فى قوله –تعالى-: (وجىء يومئذ بجهنم)، فإما أن يكون متجوزا به عن إظهارها، وإما أن يكون على حقيقته، فقد أخرج مسلم عن أبن مسعود قال: قال رسول الله *صلى الله عليه وسلم*-: (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش لها تغيظ وزفير)[٣].

يقول الألوسى: "وتأويل كل ما ذكر ونحوه مما ورد وحمله على المجاز لا يدعو إليه إلا استحالة الانتقال الذى يقتضيه المجىء الحقيقى على جهنم، وهو لعمرى غير مستحيل، فيجوز أن تخرج وتنتقل من محلها فى المحشر ثم تعود إليه، والحال فى ذلك اليوم وراء ما تتخيله الأذهان"[٤].

وبعد هذا المجىء المهول بجهنم يأتى التحذير الشديد لمن يضيعون حياتهم الدنيا فى اللهو والمعاصى فإذا هالهم ما يرون من المجىء بجهنم يتذكرون سوء سعيهم، ويتمنون أن لو كانوا قدموا عملا صالحا ينجيهم من هول جهنم وعذابها، قال –تعالى-: (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى، يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

---

(١) روح المعانى: جـ٣٠، صـ٢٣٠.

(٢) روح المعانى: جـ٣٠، صـ٢٣٠.

(٣) روح المعانى: جـ٣٠، صـ٢٣٠.

(٤) روح المعانى: جـ٣٠، صـ٢٣١.

والمراد بالإنسان: الكافر، لأنه هو الذى يندم يوم القيامة ويتحسر على فوات الطاعة ووقتها، يقول الطبرسى: "أثبت له التذكر ثم نفاه، بمعنى: أنه لا ينتفع به فكأنه لم يكن، وكان ينبغى له أن يتذكر فى وقت ينفعه ذلك فيه"[(١)].

وأكثر المفسرين[(٢)] على أن الاستفهام فى قوله –تعالى– (وأنى له الذكرى) بمعنى: (من أين)، وهو استفهام مستعمل فى الإنكار والنفى، والكلام على حذف مضاف ، والتقدير: وأنى له نفع الذكرى؟، آلآن يتذكر ويريد أن تنفعه الذكرى؟ هيهات هيهات لقد مضى وقت التذكر والاعتبار، ومنفعة الذكرى فى الآخرة منفية، لأن الآخرة دار جزاء لا دار عمل.

ويذكر الدكتور/ عبد العظيم المطعنى: أن (أنى) بمعنى: كيف، فيقول: "(أنى له الذكرى) أنى بمعنى: كيف، فالاستفهام أصلا لإنكار حال التذكر واستبعاده، ومستعمل كناية لطيفة فى إنكار التذكر، أى: إنكار أن يعود على صاحبه بفائدة"[(٣)].

والاستفهام اعتراض بين قوله: (يتذكر الإنسان)، وقوله: (يقول يا ليتنى)، والغرض من هذا الاعتراض: إثارة الكفار وتنبيههم إلى ما هم فيه من غفلة وعناد ومكابرة، وحث لهم على الانصياع للحق وقبول الهدى، قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه التذكر ولا يجدى الندم.

وجملة التمنى (يا ليتنى قدمت لحياتى) تصور فرط الندم وشدة التحسر وطغيان الهلع من رؤية جهنم وهول الموقف الذى جعل الكافر يطلب المحال، لقد أفقده هول ما رأى عقله واتزانه فها هو ذا يطلق صرخة التمنى طالبا ما مضى مع يقينه بأن هذه أمنية عزيزة المنال لا سبيل لتحقيقها.

وحذف مفعول (قدمت) للعلم به، أى: يا ليتنى قدمت لحياتى هذه أعمالاً صالحة أنتفع بها، أما معنى اللام فى (لحياتى) فقد قال المرادى وهو يعدد معنى اللام: "أن تكون بمعنى (فى)

---

(١) تفسير الطبرسى: جـ١٠، صـ٧٤١.

(٢) ينظر: البحر المحيط، جـ١٠، صـ٤٧٦، تتفسيرالنسفى، جـ٤، صـ٣٥٦، التحرير والتنوير، جـ٣٠، صـ٣٣٩.

(٣) د/عبد العظيم المطعنى، التفسير البلاغى للاستفهام جـ٤، صـ٣٦٣.

الظرفية، قالوا كقوله –تعالى–: (يا ليتنى قدمت لحياتى) أى: فى حياتى، يعنى: الحياة الدنيا، والظاهر أن المعنى: لأجل حياتى، يعنى: الحياة الدنيا"[١].

وما استظهره المرادى هو ما أراه محققا لأغراض النظم فى تجسيد واقع الكافر يوم القيامة، وما يملأ نفسه حسرة وألما وندما على ما فرط منه فى دنياه وإغفاله العمل لهذه الحياة الباقية التى سيحياها فى عذاب دائم، واللام مع الإضافة بما فيهما من الاختصاص تكشفان لك عن أعماق نفس مفعمة بالحزن والأسى على ضياع حياة خاصة غالية كان يمكن أن تكون سعادة ونعيما، فهو كمن يمسك بولد عزيز عليه أهمله فضاع بين يديه وكان هو السبب فى ضياعه ، يقلبه ويسكب الدموع أسًى وتحسراً، إنها الحياة الآخرة التى أضاعها ولم يقدم لها ويسعى من أجلها[٢]، فها هو ذا يتمنى ويتحسر ويندم على ضياعها وفوات وقت التقديم لها. يقول النسفى: "(يقول يا ليتنى قدمت لحياتى) هذه هى حياة الآخرة، أى: يا ليتنى قدمت الأعمال الصالحة فى الحياة الفانية لحياتى الباقية"[٣] فهذا التمنى يفيض ألما وحسرة وندما على فوات الطاعة ووقتها.

☼ ☼ ☼

ومن التمنى فى مقام الندم على فوات الطاعة ووقتها قوله –تعالى–: ({ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)(٤).

الآيتان تصوران حال المشركين، وقد حبسهم الله –تعالى– على النار فإذا هم يصرخون بهذا التمنى: (يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) ، إنها صرخة المفزوع الذى تملكه الذهول، وأفقده هول ما رأى من السلاسل والأغلال وعيه وعقله فأطلق هذا النداء طالبا ما يعلم أنه لن يكون.

---

(١) الجنى الدانى فى حروف المعانى، صـ٩٩.

(٢) د/ محمد الأمين الخضرى: من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم، صـ٢٨٤.

(٣) تفسير النسفى: جـ٤، صـ٣٥٦.

(٤) الأنعام: ٢٧، ٢٨.

إنها صيحة اعتذار واستعطاف خرجت فى صورة التمنى بعد أن أحاط بهم الخزى فلم يجرءوا أن يطلبوا من الله –تعالى– العودة إلى الدنيا طلبا صريحا بل أحاط بهم الذل فلم يستطيعوا أن يذكروا الله –تعالى– الذى طالما حاربوه وأنكروا وجوده وكذبوا رسله، فحذفوا المنادى بعد أداة النداء، والأصل أن يقال: يا ربنا ليتنا نرد، لكن وجوههم المسودة ورءوسهم المنكسة لم تقو على مواجهة المنعم –سبحانه– ودعائه.

ولست مع من[1] يقدر المنادى: قومنا، ففى مثل هذا الموقف تتقطع الأسباب، وتتفرق الأقوام، ويفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، والغرض من التمنى هنا: الاعتذار والاستعطاف، وإيثار صيغة التمنى يشى بما يسيطر على نفوسهم من الفزع والتحسر واليأس من تحقيق أمنيتهم.

إن صرخة التمنى هذه سببها: وقوف المكذبين يوم القيامة على النار ومشاهدتهم لأهوالها وأغلالها، وموقفهم هذا مدعاة للتأمل والنظر والعجب، ومن هنا بدأت الآية بهذا الخطاب: (ولو ترى إذ وقفوا على النار)، فهذا "خطاب للنبى –صلى الله عليه وسلم– أو لكل من له أهلية ذلك؛ قصداً إلى بيان سوء حالهم وبلوغها من الشناعة إلى حيث لا يختص بها راء دون راء"[2]،وفى الخطاب تسلية للنبى –صلى الله عليه وسلم–، وتسلية لمن آمن معه ولكل مؤمن إلى أن تقوم الساعة، وفيه دعوة للعظة والاعتبار.

و(لو) شرطية على أصلها ، وجوابها محذوف "لتذهب نفس السامع فيه كل مذهب، فيكون أدخل فى التهويل، أى: لرأيت أمرا مهولا"[3]،ويقول الدكتور/ عبد العظيم المطعنى: "وهذا الأسلوب يفيد التهويل والتفظيع كيفما وقع، ودلالته على هذا المعنى: حذف جواب (لو)، لأن فى حذفه إيماء

(١) ينظر: روح المعانى، جـ٧، صـ١٢٨.

(٢) روح المعانى، جـ٧، ص١٨٥.

(٣) حاشية الشهاب: جـ٤، ص٤٣.

إلى أن الألفاظ لا تكفى فى تصوير معناه ، لذلك يعدل عن التعبير عنه بالألفاظ إلى مشاهدته بالحواس حين يقع"[١].

هكذا كان إبهام الجواب بحذفه أفخم فى مقام تعظيم العذاب وتهويله، حيث تذهب نفس المتلقى فى تقديره كل مذهب، وبذلك يؤدى دوره البلاغى فى تكثير المعانى إضافة إلى ما يوحيه من دلالات نفسية مردها ومبتغاها حيرة المتلقى فى تقدير المحذوف ومعرفة كنهه. يقول القاسمى: "جواب (لو) محذوف تفخيما للأمر وتعظيما للشأن...، ولو قدرت الجواب كان التقدير: لرأيت سوء منقلبهم، وحذف الجواب فى ذلك أبلغ فى المعنى من إظهاره، ألا ترى أنك لو قلت لغلامك: والله لئن قمت إليك، وسكت عن الجواب ذهب بفكره إلى أنواع المكروه من الضرب والقتل والكسر، وعَظُم الخوف، ولم يدر أىَّ الأقسام تبغى، ولو قلت: لأضربنك، فأتيت بالجواب لأمن غير الضرب، ولم يخطر بباله غير الضرب، ولم يخطر بباله نوع من المكروه سواه، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً فى حصول الخوف"[٢].

والمعنى كما يقول البقاعى: "لو رأيت إيقافهم ووقوفهم فى ذلك الذل والانكسار والخزى والعار وسؤالهم وجوابهم، لرأيت أمراً هائلا فظيعا ومنظراً كريها شنيعا، ولكنه حذف تفخيما له لتذهب النفس فيه كل مذهب، وجاز حذفه للعلم به فى الجملة"[٣].

وعبر عن المستقبل بلفظ الماضى فى قوله –تعالى–: (وُقِفُوا– فقالوا)، تنبيها على تحقق وقوعه، لصدوره عمن لا خلاف فى خبره، وبُنى (وقفوا) للمجهول، لأن المنكى لهم هو الإيقاف على النار لا كونه من معين ، وللمسارعة إلى ذكر ما أوقفوا عليه وحبسوا فهو أشد عليهم وأنكى إذ إن أقسى شىء على قلوبهم هو معاينة النار ومعرفة مقدار عذابها.[٤].والتعبير بالفاء فى قوله: (فقالوا يا ليتنا نرد) يدل على عدم الفصل بين وقوفهم وقولهم، يقول ابن عاشور: "وعطف (فقالوا) بالفاء

---

(١) د/ عبد العظيم المطعنى،التفسير البلاغى للاستفهام جـ١، ص٢٩٩، ٣٠٠.

(٢) تفسير القاسمى: جـ٦، صـ٢٢٧٩.

(٣) نظم الدرر، جـ٧، صـ٨٧.

(٤) ينظر: الكشاف، جـ٢، صـ١٥، وفتح القدير: جـ٢، صـ١٠٨، وتفسير الطبرسى: جـ٣، صـ٤٤٨.

المفيدة للتعقيب، لأن ما شاهدوه من الهول قد علموا أنه جزاء تكذيبهم، فعجلوا فتمنوا أن يرجعوا"[١].

والأمنية التى تعجل المكذبون النطق بها هى قولهم: (يا ليتنا نرد) وهى أمنية تقطر حسرة وندما وخوفا من المصير المرتقب، وكأن أنفاسهم تتقطع وهم يصرخون بهذه الأمنية، حتى إنهم لم يكملوا كلامهم وبنوه على الإيجاز، فحذفوا المنادى خزيا وعارا، والأصل:يا ربنا ليتنا، ولكن أنّى لهم أن يواجهوا ربهم الذى طالما أنعم عليهم وجحدوا فضله؟ وأسقطوا متعلق (نرد)، لكون هذا المتعلق معلوم، أى: إلى الدنيا،وأيضا من مقتضيات الإيجاز فى جملة التمنى: ما هم فيه من ضيق المقام وكرب البلاء، إنها صرخة الواقف على النار وقد ذهبت بلباب عقله، فأخذ يهزى متمنيا ما لا يمكن حصوله، لتعلقه بما مضى، إنهم يطلبون الرد إلى الدنيا واعدين بالإيمان وترك التكذيب.

يقول الزمخشرى: "(يا ليتنا نرد) تم تمنيهم، ثم ابتدءوا: (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) واعدين الإيمان، كأنهم قالوا: نحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات، وشبّهه سيبويه بقولهم: دعنى ولا أعود، بمعنى: دعنى وأنا لا أعود تركتنى أو لم تتركنى، ويجوز أن يكون معطوفا على (نُردّ)، أو حالا على معنى: يا ليتنا نرد غير مكذبين، وكائنين من المؤمنين فيدخل تحت حكم التمنى، فإن فلت: يدفع ذلك قوله: (وإنهم لكاذبون)، لأن المتمنِّى لا يكون كاذبا، قلت هذا تمن قد تضمن معنى العدة فجاز أن يتعلق به التكذيب، كما يقول الرجل: ليت الله يرزقنى فأحسن إليك وأكافؤك على صنيعك، فهذا متمن فى معنى الواعد، فلو رزق مالا ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب، كأنه قال: إن رزقنى الله مالاً كافأتك على الإحسان"[٢].

وذكروا فى تمنيهم صفة الربوبية (ولا نكذب بآيات ربنا) دون سائر أسماء الله الحسنى إمعانا منهم فى التأسف والاعتذار والاستعطاف، فهم يستعطفون ربهم الذى طالما أحسن إليهم فى

(١) التحرير والتنوير، جـ٧، صـ١٨٤.

(٢) الكشاف: جـ٢، صـ١٥.

الدنيا فهو المحسن المنعم، وقد ذكروه بصفة الربوبية طلبا لإحسانه كى يردهم إلى الدنيا حتى يتداركوا ما فاتهم.

وإنما تمنوا الرد من شدة الهول، فتوهموا التخلص بالتمنى، ولو تحقق ما تمنوه وردوا واستراحوا لغلبت أهواؤهم رشدهم فنسوا ما حل بهم ورجعوا إلى ما ألفوا من التكذيب والمكابرة[١]، يقول الزمخشرى: "تمنوا ما تمنوا ضجرا لا أنهم عازمون على أنهم لو ردوا لآمنوا"[٢].

وقوله –تعالى– (وإنهم لكاذبون) تذييل مؤكد لما قبله، وجىء به مؤكداً بـ(إن) واللام واسمية الجملة؛ زيادة فى تأكيد كذبهم وتفنيد ما تمنوه، وجاء تكذيبهم بصيغة الاسم: (كاذبون)، دلالة على تأصل الكذب فيهم وثباته ودوامه، فهو "سجية لهم قد تطبعوا عليها من الدنيا فلا عجب أن يتمنوا الرجوع ليؤمنوا، فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه، فإن الكذب سجيتهم، وقد تضمن تمنيهم وعداً فلذلك صح إدخاله فى حكم كذبهم دخول الخاص فى العام؛ لأن التذييل يؤذن بشمول ما ذُيِّل به وزيادة، فليس وصفهم بالكذب بعائد إلى التمنى، بل إلى ما تضمنه من الوعد بالإيمان وعدم التكذيب بآيات الله"[٣].

☼ ☼ ☼

ومن التمنى فى مقام الندم على فوات الإيمان والطاعة قوله –تعالى–: ({إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا، يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ، وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنْ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)[٤].

إذا كانت سورة الفجر قد عرضت مشهد النار وقد جىء بها فى صورة فظيعة جعلت الكافر يصرخ متمنيا أن لو كان قدم لحياته، فإن سورة الأنعام قد عرضت صورة المشركين وقد حبسوا على النار وهم يتمنون الرد إلى الدنيا خوفا وهلعا مما ينتظرهم ،وها هى ذى سورة الأحزاب تصور حلقة

(١) ينظر: التحرير والتنوير، جـ٧، صـ١٨٦.

(٢) الكشاف: جـ٢، صـ١٥.

(٣) التحرير والتنوير: جـ٧، صـ١٨٦.

(٤) الأحزاب: ٦٤-٦٨.

أخرى، وموقفا آخر من المواقف التى يتعرض لها من لم يطع الله ورسوله، وهذا الموقف مترتب على موقف الفجر والأنعام، فإذا كانوا فى الفجر قد رأوا النار يؤتى بها، وفى الأنعام قد أوقفوا وحبسوا على النار، فها هم أولاء فى الأحزاب قد أُدخلوا فيها، تقلب وجوههم فى سعيرها، وقد علا صياحهم بأمنية ليست كأمنيتهم فى الفجر والأنعام، إنهم فى الفجر تمنوا أن لو كانوا قدموا عملا صالحا، وذلك عندما رأوا جهنم يؤتى بها، وفى الأنعام تمنوا الرد إلى الدنيا قبل أن يدخلوا النار، وكأنهم كانوا يطمعون قبل دخول النار فى الرد إلى الدنيا، كى يصلحوا ما أفسدوه، أما الآن وقد أُدخلوا النار وتقلبوا فى جحيمها فقد يئسوا من الرد إلى الدنيا، وعلت أصواتهم بتمنى ما فاتهم فى الدنيا من طاعة الله وطاعة رسوله، وهذه الأمنية تصور ما انتابهم من حسرة وندم على فوات الطاعة ووقتها.

وآيات الأحزاب تبدأ بهذا الخبر المؤكد: (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا)، "ومن المعروف لدى أهل اللغة والبلاغة أن التأكيد حينما يرد فى الكلام يكون وروده وفقا لحال يستدعيه ومقام يقتضيه ومخاطب معين يخاطب به، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يكون مجيؤه عبثا فى الكلام وزيادة يُستغنى عنها فى الجملة، وإن خفى أمر وروده أحيانا على من يتوقف بالكلمات عند ظاهرها دون البحث عن المقام الذى جاءت به والسياق الذى وردت فيه كما حدث للكندى مع أبى العباس المبرد"[(١)].

والتأكيد فى هذه الآية إما أن يكون القصد به تحقيق المخبر به وتقوية مضمون الكلام اهتماما بالخبر، وإما أن يكون منظورا به إلى حال السامعين من الكافرين، فيكون التأكيد فى مقابلة

---

(١) د/هاشم محمد هاشم: من أسرار التعبير بالحروف المشبهة بالفعل فى القرآن الكريم، ص٤٢، والذى حدث بين الكندى وأبى العباس المبرد هو ما ذكره عبد القاهر الجرجانى حيث قال: "روى عن ابن الأنبارى أنه قال: ركب الكندى المتفلسف إلى أبى العباس وقال له : إنى أجد فى كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس: فى أى موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعانى" ينظر: دلائل الإعجاز: صـ٢٤٢، تحقيق: رشيد رضا.

إنكار الكفار أن يكون فى حالهم شىء من نقص يقتضى اللعن على حد قول بعضهم –كما حكاه القرآن–: (وَلَئِن رُدِدت إلى رَبّى لَأجِدَنّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا)[١]، وقول الآخر: (وَلَئِن رُجِعْتُ إلى رَبّى إنّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى)[٢]،فهم ينكرون أن يكون لهم فى الآخرة اللعن والسعير.

والجملة المؤكدة: (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا)، "مستأنفة استئنافا بيانيا، لأن جملة (ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) إلى قوله: (ولن تجد لسنة الله تبديلا) تثير فى نفوس السامعين التساؤل عن الاقتصار على لعنهم وتقتيلهم فى الدنيا، وهل ذلك منتهى ما عوقبوا به أولهم من ورائه عذاب؟ فكان قوله: (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا) جوابا عن ذلك، وحرف التوكيد للاهتمام بالخبر، أو منظور به السامعين من الكافرين".[٣]

"ولما كان العذاب ربما استهانة البعض إذ كان ينقطع ولو كان شديدا قال مبينا لحالهم: (خالدين فيها)، ولما كان الشىء يطلق على ما شابهه بوجه مجاز وعلى سبيل المبالغة قال مؤكدا لإرادة الحقيقة: (أبداً)، ولما كان الشىء قد يراد ثم يمنع منه مانع قال: (لا يجدون وليا ولا نصيرا)"[٤].

والحق ـ سبحانه ـ يبين فى قوله: (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) أن عذاب الكافرين فى النار له طرق وألوان، وأن العلة من تصويره: ردع الكافرين وزجرهم، وإن لم يرتدعوا فلينتظروا يوما فيه تقلب وجوههم فى النار كما يقلب اللحم الذى يراد شويه، وهم فى تلك الحالة يعلنون ندمهم وحسرتهم على عدم طاعتهم لله ورسوله، يقول ابن عاشور: "والتقليب: شدة القلب، والقلب تغيير وضع الشىء على جهة غير الجهة التى كان عليها، والمعنى: يوم تقلِّب ملائكة العذاب وجوههم فى النار على غير اختيار منهم، أو يجعل الله ذلك

---

(١) الكهف: ٣٦.

(٢) فصلت: ٥٠.

(٣) التحرير والتنوير: جـ٢٢، صـ ١١٤.

(٤) نظم الدرر: جـ١٥، صـ٤١٨.

التقلّب فى وجوههم، لتنال النار جميع جهاته كما يُقلّب الشّواء على المَشْوَى؛ لينضج على سواء، ولو كان لفح النار مقتصرا على أحد جانبى الوجه لكان للجانب الآخر بعض الراحة"[١].

وفى ذكر الوجوه مجاز مرسل علاقته الجزئية، إذ ليس التقليب فى النار للوجوه فقط، بل لسائر الجسم، وإنما خُصت الوجوه بالذكر من بين سائر الأعضاء، لأنها أشرف سائر الأعضاء، فهى مقرٌّ لحواس النظر والسمع والشم والذوق وغير ذلك، ونرى الإنسان فى الدنيا يتقى ضرب الوجه بيديه وبجسمه وبسائر الأعضاء، لأن هذا الجزء مجمع الحواس وأشرف ما فى الإنسان، والحدث فيه أنكى، فإذا قُلِّب فى النار :فإن تقليب ما سواه أولى، يقول الزمخشرى: "وخصت الوجوه بالذكر، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده، ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة"[٢].

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى ما فى الآيات من وضع المظهر موضع المضمر، حيث أوثر التعبير بالاسم الظاهر وهو لفظ (النار) وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالضمير فيقال: يوم تقلب وجوههم فيها، لتقدم مرجعه وهو قوله –تعالى–: (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا) ولكن النظم الكريم آثر التعبير بالاسم الظاهر بغرض زيادة تمكينه فى النفوس وتقريره فى الأذهان حتى يؤتى ثمرته المرجوة فى الردع والزجر والتخويف من عاقبة المعصية والترهيب من النار، فالتعبير بالاسم الظاهر أقوى فى إبراز المعنى وأبلغ فى التأثر به واستقراره فى النفس من التعبير بالضمير، يقول البقاعى: "ولما كان للإظهار مزيد بيان وهول مع إفادته استقلال ما هو فيه من الكلام بنفسه قال: (فى النار) أى: المسعرة"[٣].

وفصلت جملة: (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا)عما قبلها للاستئناف البيانى، وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم الفظيعة، كأنه قيل: فماذا يصنعون عند تقليب وجوههم فى النار؟ فقيل: (يقولون) متحسرين على ما أضاعوه فى حياتهم من الإيمان والطاعة: (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) ويبدو الندم واضحا فى هذا التمنى الذى يصور حال الكافرين وهم يقلبون فى نار جهنم كما تقلب قطعة لحم فى قدر تغلى يرمى بها الغليان من جهة إلى جهة، أو كما

(١) التحرير والتنوير: جـ٢٢، صـ١١٦.

(٢) الكشاف: جـ٣، صـ٥٦٢.

(٣) نظم الدرر: جـ١٥، صـ٤١٨.

يقلب الشواء على المشوى، وما ينتج عن هذا العذاب من سواد وتقديد وتغييير لهيأتهم، وهو عذاب دائم ومستمر، ليس لهم ولى ولا نصير ينقذهم منه إلا صرخة التمنى هذه التى تزيدهم حسرة على حسرتهم وندما إلى ندمهم، لأنهم يتمنون ما لا يمكن حصوله، لانقضاء وقته وزمنه،إنهم يتمنون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا رسوله، وتلك أمنية عزيزة المنال، لتعلقها بما مضى وفات.

فالتمنى هنا يصور صرخة المفزوعين الذين تملكهم الذهول، وأفقدهم هول السعير وعيهم فأطلقوا هذا النداء: (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) طالبين ما يعرفون أنه لا يكون، ولكنها صرخة الندم والحسرة خرجت فى صورة التمنى بعد أن أحاطت بهم النار وتقلبوا فى سعيرها فلم يجرءوا أن يذكروا ربهم الذى طالما عصوه وعصوا رسله، فحذفوا المنادى بعد أداة النداء، والأصل أن يقال: يا ربنا ليتنا أطعناك وأطعنا الرسولا، لكن الخزى الذى أحاط بهم منعهم من مواجهة ربهم وندائه، وصيغة التمنى هنا تشى بما يسيطر على نفوسهم من اليأس فى حصول ما يتمنون، لتعلقه بالمستحيل، والغرض من التمنى هنا: الاعتذار والاستعطاف طلبا للرحمة.

ولا يفوتنا ما فى صيغة المضارعة: (يقولون يا ليتنا) من الدلالة على التجدد والاستمرار، فصراخهم بهذا التمنى متجدد ما إن ينتهى حتى يبدأ، وما إن ينقطع حتى يتصل، فهو ديدنهم يتجدد تجدد الألم ويستمر استمرار العذاب، وفى هذا ما فيه من الدلالة على منتهى ندمهم على ترك الطاعة ، ومبلغ حسرتهم على فوات وقتها ومضى زمنها.

ويبدو واضحا فى أمنية الكافرين أنهم لم يقتصروا على تمنيهم طاعة الله، وإنما عطفوا عليها تمنيهم طاعة الرسول مع أن طاعة الله تتضمن طاعة الرسول، وطاعة الرسول تتضمن طاعة الله، وفى هذا إشارة إلى مدى ندمهم وتحسرهم، لإضاعتهم جميع سبل الطاعة وطرقها الكثيرة، فلا هم أطاعوا الله ، ولا هم أطاعوا الرسول، وقد علموا يومئذ أن ما كان يأمرهم به الرسول، إنما هو تبليغ عن مراد الله –تعالى– ، وأنهم إذ عصوه فقد عصوا الله –تعالى–.

يقول البقاعى: "ولما كان المقام للمبالغة فى الإذعان والخضوع أعادوا العامل فقالوا: (وأطعنا الرسولا)، أى: الذى بلغنا عنه...، وزيادة الألف، إشارة إلى إيذانهم بأنهم يتلذذون بذكره، ويعتقدون أن حسرته لا تنحصر"(١).

ولما لم يعد عليهم تمنيهم بشىء يذكر، أخذوا يعتذرون فى تشكيهم ممن أضلهم: (وقالوا: ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) عطفا على (يقولون)، "والعدول إلى الماضى للإشعار بأن قولهم هذا ليس مستمرا كقولهم السابق، بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضربا من التشفى بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم فى تلك الورطة...، والسادة: يعنون بهم الذين لقنوهم الكفر، والتعبير عنهم بعنوان السادة والكبراء، لتقوية الاعتذار، وإلا فهم فى مقام التحقير والإهانة"(٢).

ولما لم يجد تمنيهم ولا قام لهم عذر فى تشكيهم ممن أضلهم دعوا على سادتهم وكبرائهم بقولهم: (ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا)، ضعفا على ضلالهم فى أنفسهم، وضعفا على إضلال من أضلوا. يقول الزمخشرى: "يعترفون ويستغيثون ويتمنون ولا ينفعهم شىء من ذلك"(٣).

وبعد: فقد بينت سورة الفجر موقفا من مواقف الكافرين يوم القيامة حيث الملائكة يقفون صفوفا ويؤتى بجهنم فى صورة فظيعة مهولة تجعل الكافرين يندمون ويتحسرون ويتمنون أن لو كانوا قدموا عملا صالحا ينتفعون به من هذا الكرب الفظيع، وتتنامى الأحداث شيئا فشيئا لنجد جهنم وقد استقرت فى مكانها وجىء بالكافرين ليقفوا عليها فيعاينوها عن قرب، ولفظاعة ما يرون من أهوالها يتمنون أمنية خلاف الأولى، إنهم يتمنون الرد إلى الدنيا، وتلك أمنية صراخها أعلى وصياحها أشد من سابقتها، لأنها صرخة من حبس على النار فشاهد أهوالها رأى العين، وهذا ما صور فى سورة الأنعام ، وهى بعد الفجر نزولا، أما سورة الأحزاب، وهى بعد الأنعام نزولا فأمنية الكافرين فيها، أوغل فى اليأس، لأنهم لم يُردوا إلى الدنيا كما تمنوا فى الأنعام، وإنما أُلقوا فى

---

(١) نظم الدرر: جـ١٥، صـ٤١٨.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين: جـ٣، صـ٤٥٧.

(٣) الكشاف: جـ٣، صـ٥٦٢.

جهنم يتقلبون فى سعيرها، فكانت حسرتهم مجسدة فى أمنيتهم أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول، وترتيب أمانى الكافرين يتناسب تماما مع ترتيب السور الثلاث بحسب النزول، ومع ترتيب الأحداث التى تعرض لهم يوم القيامة، فسبحان من هذا كلامه.

☼ ☼ ☼

التمنى فى مقام الندم على فوات المال وهلاكه :

قال-تعالى-: ({يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا، وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا، وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا)[1].

ذكر البيضاوى أن الخطاب فى هذه الآيات "لعسكر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المؤمنين منهم والمنافقين. والمبطئون: منافقوهم، تثاقلوا وتخلفوا عن الجهاد، من بطأ بمعنى: أبطأ، وهو لازم، أو ثبطوا غيرهم كما ثبط ابن أُبَيّ الناس يوم أحد"[2]، ومن هنا فإن جملة التمنى: (يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) من قول المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد وثبطوا غيرهم، ولا شك أن التمنى هنا يتعلق بالمستحيل، لأن المنافقين يتمنون غير الواقع فى الماضى واقعا فيه مع حكم العقل بامتناعه.

وجملة التمنى فى الآيات الكريمة لم تبرز لنا رغبة المنافقين فى استدراك ما فاتهم من غنائم الحرب وفقط، وإنما تضمنت مع هذا نوعين من الإحساس. النوع الأول: تبدوا فيه مشاعر الأسى والتحسر وشكوى النفس من فوات ما فات، فما قول المبطىء: (يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) إلا صرخة ملتهبة تعكس تعلق نفسه بما فات من الغنيمة، وانظر كيف هيأ لهذه الصرخة المتحسرة النادمة بأداة النداء اللافتة المنبهة، ذات الصوت الطويل المتناسب مع طول الحسرة.

---

(١) النساء: ٧١-٧٣.

(٢) تفسير البيضاوى: جـ٣، صـ١٥٤.

ونصب قوله: (فأفوز) على جواب التمنى[١]، فهذا المبطىء يتمنى أن لو كان مع الجيش، ليفوز فوزا عظيما، وهو الفوز بالغنيمة، ولذلك أكد الفعل بمصدره (فوزا)، وأتبع المصدر بالوصف (عظيما)، أى: فآخذ من الغنيمة حظا وافراً، وبهذا يبدو واضحا أن تلهف المبطِّىء وحسرته إنما كان على ما فاته من الغنيمة، لا على ما فاته من الأجر والمثوبة.

والنوع الثانى الذى تضمنه التمنى: هو الشعور بالغيظ من المؤمنين، وحسدهم على ما أصابوه من نصر وغنيمة، إنه تصوير قرآنى معجز لما يتَّقد فى نفوس هؤلاء المنافقين من كراهية للمؤمنين، وكيف أنهم يتمنون للمؤمنين عكس ما يتمنون لأنفسهم مع أنهم ظاهرا فى جملة المؤمنين؟

ولننظر ثانية فى هذه الآيات الكريمة لنرى فى ألفاظها وتراكيبها ما ينم ويشى بما يدور فى نفوس المنافقين –وهم يتمنون ما فاتهم– من كراهية وحسد للمؤمنين على ما أصابوه من النصر والغنيمة.

فمطلع الآيات فيه نداء للمؤمنين: (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا)، وأداة النداء فى هذه الآية هى: (يا) الموضوعة لنداء البعيد، والمؤمنون قريبون من ربهم بإيمانهم وأعمالهم، والله –عز وجل– أقرب إلى عباده من حبل الوريد، لكن نُزِّل القريب هنا منزلة البعيد؛ تنبيها على عظم الأمر الذى نُودى من أجله، وعلو شأنه، حتى كأن المنادَى مقصّر فيه، غافل عنه، وفى هذا حث للمنادَى على المبادرة بالامتثال والاستجابة. فالغاية من النداء: أن يصغى أهل الإيمان إلى الأمر الذى يلى النداء، وهو قوله –تعالى– (خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا).

إنه أمر من الله –تعالى– للمؤمنين بأن يتيقظوا ويحترزوا من العدو، ولا يمكنوه من أنفسهم، "وأن ينفروا على أحد الوصفين، ليكون ذلك أشد على عدوهم، وليأمنوا من أن يتخطفهم الأعداء إذا نفر كل واحد منهم وحده"[٢]، وقوله –تعالى–: (خذوا حذركم)، قيل فيه قولان، أحدهما: إن معناه، احذروا عدوكم بأخذ السلاح، والثانى: إن معناه، خذوا أسلحتكم، بتسمية

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: جـ٣، صـ٢٧٧.

(٢) الشوكانى: فتح القدير، جـ١، صـ٤٨٦.

الأسلحة حذرا، لأنها الألة التى يُتّقى بها الحذر، ويكون من باب حذف المضاف، وتقديره: خذوا آلات حذركم[١].

والعدو الذى يبالغ فى إظهار الود والشفقة والنصيحة للمؤمنين، ويبطن الحقد والكراهية أكثر خطرا من العدو الظاهر المكاشف، ومن هنا نفهم معنى الأمر بأخذ الحذر والحيطة، والترقب لهذا العدو الماكر، وقد تحدثت الآيات بعد ذلك عن هؤلاء المندسين فى صفوف المؤمنين يظهرون لهم الودّ ويبطنون العداوة والكراهية، قال –تعالى–: (وإنّ منكم لمن ليبطئن)، "وإنما قال (منكم)، لاجتماعهم مع أهل الإيمان فى الجنسية والنسب، وإظهار الإسلام، لا فى حقيقة الإيمان"[٢].

والخبر فى القول الكريم: (وإن منكم لمن ليبطئن)، جاء مؤكدا بـ(إن) واللام الداخلة على اسمها (لَمَن)، واللام الداخلة على جواب القسم (ليبطئن)، يقول البيضاوى: " واللام الأولى للابتداء دخلت على اسم (إن)، للفصل بالخبر، والثانية: جواب قسم محذوف، والقسم بجوابه صلة (من)، والراجع إليه ما استكن فى (ليبطئن)"[٣].

والداعى لهذا الحشد من المؤكدات هو تقوية مضمون الكلام وتقريره فى نفوس المؤمنين، وهذا أدعى لأخذ الحذر والتيقظ وأخذ الحيطة من فعال هذا المبطىء الذى أضمر الكراهية للمؤمنين، وأقسم أن يبطىء عن الجهاد ويثبط من عزيمة غيره، حنقا وغيظا وكراهية للإيمان وأهله، ويبدو أن حذف القسم وإخفائه من العبارة يتناسق مع إخفائه فى قلب المنافق، فهو يظهر المودة والنصيحة، ويخفى ما تأكد فى نفسه من معاداة أهل الإيمان.

ومن مظاهر نفاق المبطىء وما تنمُّ عنه أمنيته: ترقبه لما تؤول إليه الحرب بين المؤمنين وعدوهم، وما تنتهى إليه من نتائج، فها هو ذا يترقب ويستطلع الأخبار، فإن أُخبر بهزيمة المؤمنين فرح وسعد ووجد فى نفسه راحة وشماتة، وإن أُخبر بنصر الله للمؤمنين، تأججت نار العداوة والكراهية والحسد فى صدره، وانطلق لسانه بما ينم عما فى قلبه.

---

(١) ينظر: تفسير الطبرسى: جـ٣، صـ١١٢، ومحاسن التأويل: جـ٥، صـ١٣٩٢.

(٢) تفسير البغوى: جـ١، صـ٤٥١.

(٣) تفسير البيضاوى: جـ٣، ص١٥٤، وينظر: جامع البيان للطبرى، جـ٥، ص١٦٦.

ولقد صورت الآيات هاتين الحالتين المتناقضتين للمبطىء أتم تصوير، وكشف النظم عن نار العداوة المتأججة فى قلبه بما يوحى بأهمية أخذ الحذر، واليقظة لهذا العدو المخادع.

هاتان حالتان للمنافق مترتبتان على نتيجة المعركة بين المؤمنين وعدوهم، الحالة الأولى: يبدو فيها فرح المبطىء وراحة فؤاده بهزيمة المؤمنين، وسعادته بتخلفه ونجاته، واعتبر هذا فضلا ونعمة من الله عليه، والحالة الثانية: تبدو فيها مشاعر الأسى والتحسر المدلول عليها بتمنى ما فات من الغنيمة، وقدم النظم الكريم الحالة الأولى، وهى: إصابة المؤمنين وانهزامهم ومردود ذلك على المبطىء، لأن هذا ما يريده المبطىء، وتبدو فيه علامات نفاقه ودلائل كراهيته وعداوته ظاهرة واضحة، يقول أبو السعود: "وتقديم الشرطية الأولى، لما أن مضمونها لمقصدهم أوفق، وأثر نفاقهم فيها أظهر"(١).

وأكد قوله –تعالى–: (ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن) باللام الموطئة للقسم، وبلام جواب القسم، وبنون التوكيد، ولم يؤكد القول الأول وأتى به ماضيا، تنبيها على فرط تحسر المبطىء، ودلالة على غريب حاله، فقد أصبح متلهفا على ما فاته يود أن تجرى المقادير على وفق مراده(٢).

ولما كان تمنى المبطىء وتحسره على فوات الأغراض الدنيوية جاء قوله –تعالى–: (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) معترضا بين القول ومقولة، تأكيدا لذمه وزيادة فى قبح فعله، وتنبيها على ما فى قلبه، وأن قوله هذا قول من لا صلة بينكم وبينه، وإنما تمنى أن يكون معكم، لمجرد المال والغنيمة.

يقول الزمخشرى فى قوله –تعالى–: (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة): "اعتراض بين الفعل الذى هو (ليقولن)، وبين مفعوله وهو (يا ليتنى)، والمعنى: كأن لم تتقدم له معكم مُوادَّة، لأن المنافقين كانوا يوادون المؤمنين ويصادقونهم فى الظاهر، وإن كانوا يبغون لهم الغوائل فى الباطن، والظاهر أنه تهكم، ولأنهم كانوا أعدى عدو للمؤمنين وأشدهم حسدا لهم، فكيف يوصفون بالمودة إلا على وجه العكس تهكما بحالهم"(٣).

---

(١) إرشاد العقل السليم: جـ٢، صـ٢٠٠، وينظر: حاشية الجمل: جـ١، صـ٤٠٠.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوى، وحاشية الشهاب عليه: جـ٣، صـ١٥٥، والتحرير والتنوير: جـ٥، صـ١١٩.

(٣) الكشاف: جـ١، صـ٥٣٣، وينظر: حاشية الشهاب: جـ٣، صـ١٥٥.

إن الإشعار بثبوت المودة بين المبطئ والمؤمنين، إما أن يكون بناء على الظاهر، وإما أن يكون تهكما بحالهم، كما ذكره الزمخشرى، "وذلك لأنه لو كان ذا مودة حقيقية لقال حال المصيبة: يا ليتها لم تصبهم، ولو كنت معهم لدافعت عنهم، وحال الظفر: لقد سرنى عزُّهم، ولكنه لم يجعل محط همه فى كلتا الحالتين غير المطلوب الدنيوى"(١).

وهذا المبطئ يتمنى أن لو كان خرج مع المؤمنين ليفوز بالغنيمة فوزا عظيما، "وشبه حاله فى حين هذا القول بحال من لم تسبق بينه وبين المخاطبين مودة حقيقية أو صورية، فاقتضى التشبيه أنه كان بينه وبينهم مودة قبل هذا القول، ووجه هذا التشبيه: أنه لما تمنى أن لو كان معهم، وتحسر على فوات فوزه..،كان حاله فى تفريطه رفقتهم يشبه حال من لم يكن له اتصال بهم بحيث لا يشهد ما أزمعوا عليه من الخروج للجهاد، فهذا التشبيه مسوق مساق زيادة تنديمية وتحسيرية، أى: إنه هو الذى أضاع على نفسه سبب الانتفاع بما حصل لرفقته من الخير، أى: إنه كان له من الخلطة مع الغانمين ما شأنه أن يكون سببا فى خروجه معهم، وانتفاعه بثواب النصر وفخره، ونعمة الغنيمة"(٢).

وما يلفت النظر فى النظم الكريم أن الله –سبحانه– نسب إصابة الفضل فى قوله: (ولئن أصابكم فضل من الله) إلى ذاته العلية، دون إصابة المصيبة، وفى هذا يقول أبو السعود: "ونسبة إصابة الفضل إلى جناب الله –تعالى– دون إصابة المصيبة، من العادات الشريفة التنزيلية، كما فى قوله –سبحانه–: (وإذا مرضت فهو يشفين)(٣)"(٤).

إن التمنى فى هذه الآيات الكريمة يكشف لنا عن صورتين من أحاسيس المنافقين: إحساس بالحسرة على فوات الغنيمة، وإحساس بالحقد والكراهية للإيمان وأهله، والدليل على هذين الإحساسين هو قول المبطئ: (يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما)، يقول القاسمى: "إن قولهم هذا قول من لم تتقدم له معكم مُوادّة، لأن المنافقين كانوا يوادون المؤمنين ويصادقونهم فى الظاهر،

---

(١) نظم الدرر: جـ٥، صـ٣٢٥.

(٢) التحرير والتنوير: جـ٥، صـ١٢٠.

(٣) الشعراء: ٨٠.

(٤) إرشاد العقل السليم: جـ٢، صـ٢٠٠.

وإن كانوا يبغون لهم الغوائل فى الباطن، وفيه تعجيب أيضا من قولهم المذكور، قال بعض المفسرين: ثمرة ذلك تأكيد وجوب الجهاد وتحريم التثبيط عنه"[١].

☼ ☼ ☼

ومن التمنى فى مقام الندم على فوات المال وهلاكه قوله تعالى-: (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا)[٢].

فالقرآن الكريم فى هذه الآية الكريمة وما قبلها يصور حال هذا الرجل الذى أنعم الله – تعالى- عليه بجنتين من أعناب ونخل وزرع وماء، ما من شأنه شكر المنعم –تعالى- إلا أن هذا الرجل قابل النعمة بالكفر والجحود، فها هو ذا يتعالى على صاحبه بكثرة أمواله وعزة أولاده، وها هو ذا يعترض على القدرة الإلهية فى زوال الدنيا وقيام الساعة ورجوعه إلى ربه، وإن حدث –على سبيل الشك- رجوع إلى الله وردٌّ، فهو قاطع بأن له عند ربه خيراً من جنتيه، هكذا توهم المشرك وسولت له نفسه الكفر فلم يقتنع بنصيحة صاحبه وأسرّ على شركه وعناده، مما جعل صاحبه ييئس من تمسكه بشركه قائلا: (فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا، أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا)[٣].

وحدث ما لم يتوقعه المشرك، فقد أُجيب رجاء المؤمن وأُحيط بثمر المشرك وتلفت جنتاه، وحينئذ أعلن ندمه وحسرته متمنيا أن لو كان آمن قبل ذلك حتى لا يزول ما كان فيه من النعيم: (وأُحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أُشرك بربى أحدا).

فالتمنى هنا ما هو إلا صرخة النادم المتحسر الذى استولت عليه الحيرة والدهشة عندما أُحيط بثمره، فتمنى ما فات ومضى من انتفاء الشرك، (ياليتنى لم أُشرك بربى أحدا)، إنه يندم على تفريطه فى الإيمان وعدم ترك الشكر وعدم قبول نصيحة الناصح، ولكن أنى له نفع الندم؟ وبخاصة أن ندمه لم يكن حرصا على الإيمان، وإنما كان لأجل ما فاته من المال الغائر، والثمر الذى أُحيط به،

---

(١) محاسن التأويل: : جـ٥، صـ١٣٩٤.

(٢) الكهف: ٤٢.

(٣) الكهف: ٤٠، ٤٢.

يقول الزمخشرى فى قوله –تعالى– (يا ليتنى لم أُشرك بربى أحدا): "كلمة أُلجىء إليها فقالها جزعا مما دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها"[١].

وإذا أردنا أن نعرف مقدار الحسرة فى أُمنية هذا المشرك فلننظر إلى نظم الآية الكريمة التى مطلعها قوله –تعالى–: (وأُحيط بثمره)، فهذا المطلع كما يقول الزمخشرى: "عبارة عن إهلاكه، وأصله من أحاط به العدو، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل فى كل إهلاك، ومنه قوله –تعالى–: (إلا أن يحاط بكم)[٢]، ومثله قولهم: أتى عليه، إذا أهلكه، من أتى عليهم العدو: إذا جاءهم مستعليا عليهم"[٣].

وكلام الزمخشرى يوحى بأن فى الكلام استعارة تمثيلية، شبه فيها حال إهلاك جنته وإحراق ثمره بحيث لم يبق أثر، بحال إهلاك قوم بجيش عدو أحاط بهم وأوقع بهم بحيث لم ينج منهم أحد، ويمكن إجراء الاستعارة على أنها تبعية بتشبيه الإهلاك بالإحاطة، ثم حذف المشبه، واشتق من الإحاطة بمعنى: الإهلاك أُحيط بمعنى: أُهلك بجامع الإحاطة والإتيان على كل شىء فى كل[٤].

وهذا الأسلوب البيانى المعجز يجسد مدى ندم المتمنِّى، وكيف كانت دهشته وحسرته، لقد كان يرتع فى ثمار ونعيم كثير، وفجأة (أُحيط بثمره)، فلم يبق له أدنى شىء، يقول أبو حيان: "والظاهر أن الإحاطة كانت ليلا، لقوله: (فأصبح)، على أنه يحتمل أن يكون معنى (فأصبح): فصار، فلا يدل على تقييد الخبر بالصباح"[٥].

والأول عندى أولى، لما فيه من هول المفاجأة، لقد نام المشرك مفتخرا بجنتيه وثماره، فإذا به يستيقظ على هلاك جنتيه وضياع ثمره، ولا يجد مما كان يفاخر به صاحبه شيئا، فلفرط دهشته

---

(١) الكشاف: جـ٢، صـ٧٢٤.

(٢) يوسف: ٦٦.

(٣) الكشاف: جـ٢، صـ٧٢٤.

(٤) ينظر: حاشية الشهاب: جـ٦، صـ١٠٣.

(٥) البحر المحيط: جـ٧، صـ١٨١، وينظر: الجامع لأحكام القرآن: جـ٥، صـ٤١٠.

وضياع وعيه، علا صوته بهذه الأمنية الحزينة النادمة: (يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا)، إنه يتحسر على ما فرط منه حين لا ينفعه الندم بعد حلول النقمة.

ولا يخفى ما فى بناء الفعل: (وأُحيط) للمفعول من سر بلاغى، وهو الإشارة إلى سرعة الإهلاك وسهولته، وكأن هناك قوة خارقة أحاطت بهاتين الجنتين فأهلكت ثمارهما وابتلعت مصدر الحياة فيهما، فانمحى أثر الجنتين وزال، فصاح المشرك، لفرط دهشته وشدة حسرته متمنيا ما لا يمكن حصوله، لانقضاء وقته وذهاب زمنه.

والمتأمل فى نظم الآية يرى بوضوح فرط حسرة المتمنى وندمه، يبدو ذلك واضحا فى الكناية المصورة لحاله أتم تصوير وقد فوجئ بهلاك ثمره (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها). يقول الزمخشرى: "وتقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر، لأن النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن، كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط فى اليد، ولأنه فى معنى الندم عُدِّى تعديته بـ(على)، كأنه قيل: فأصبح يندم، (على ما أنفق فيها)، أى: أنفق فى عمارتها"[1].

لقد جسدت الكناية فى هذه الآية معنى الندم وأبرزته فى صورة محسوسة مشاهدة، وهذا أدعى لتأكيد ما أصاب المشرك من ندم وحسرة، والعلاقة بين الندم وتقليب الكفين هى التلازم الذى يرجع إلى ما عرف عن الإنسان وطباعه، فقد عرف عنه أنه إذا ندم قلب كفيه متحسرا على ما فات...

ولا يخفى ما فى دلالة الفاء فى قوله –تعالى–: (فأصبح) من سرعة ندم المشرك المترتبة على سرعة إهلاك الثمر وهول المفاجأة، كما لا يخفى ما فى دلالة المضارعة فى (يقلب) على تجدد هذا الفعل من المشرك النادم تبعا لتجدد رؤيته المتحسرة لثمره الهالك، فالعدول عن الماضى إلى المضارع إنما كان لقصد استمرار الفعل فيما مضى وقتا بعد وقت، لأن المضارع يفيد التجدد والحدوث، وفى المضارعة –أيضا– استحضار لتلك الصورة العجيبة المجسدة لمنتهى حسرة المشرك وفرط ندمه، والتعبير بالمضارع عن الماضى، استحضارا للصورة لا يحسن إلا فى الأمور العجيبة الغريبة، التى يُستشرف لرؤيتها ومشاهدتها، بسبب فظاعتها وغرابتها وشدة تأثيرها، وهل هناك أعجب ولا

---

(١) الكشاف جـ٢، صـ٧٢٤.

أغرب من صورة هذا النادم الذى يقلب كفيه حسرة على هلاك ثمره وتمنيا لما فات وقته، إن صيغة المضارعة جعلت الصورة حاضرة أمام الأعين وكأنها تُبصر وتشاهد لوقتها، "وفى ذلك زجر للكفرة من قريش وغيرهم، لئلا يجىء لهم حال يؤمنون فيها بعد نقم تحل بهم"[(١)].

وقوله: (وهى خاوية على عروشها)، "يعنى سقطت عروشها على الأرض، وسقطت الكروم فوقها"[(٢)]، فجُمع عليه بين هلاك الثمر والأصل، وهذا من أعظم الجوائح، جزاء بغيه وشركه، يقول الألوسى: "ولعل تخصيص حال الكروم بالذكر دون النخل والزرع، إما لأنها العمدة وهما من متمماتها، وإما لأن ذكر هلاكها –على ما قيل– مغن عن ذكر هلاك الباقى، لأنها حيث هلكت وهى مسندة بعروشها فهلاك ما عداها بالطريق الأولى، وإما لأن الإنفاق فى عمارتها أكثر"[(٣)]

ولا يخفى ما فى الجملة الاسمية: (وهى خاوية على عروشها) من دلالة على دوام هلاك الثمر واستمراره فهو هلاك أتى على كل شىء، فلا يصلح معه استدراك ما فات، أو إعادة الإصلاح.

وجملة: (ويقول) حكاية لندمه على ما فرط منه حين لا ينفعه الندم بعد حلول العقاب، يقول ابن عاشور: "والمضارع للدلالة على تكرر ذلك القول منه، وحرف النداء مستعمل فى التلهف، و(ليتنى) تمن مراد به الندم، وأصل قولهم: (ياليتنى): أنه تنزيل للكلمة منزلة من يعقل، كأنه يخاطب كلمة (ليت) يقول: احضرى فهذا أوانك"[(٤)]،لقد ندم على ما فرط منه فى الماضى ولأجل ما فاته فى الدنيا من المال، لا حرصا على الإيمان والفوز فى العقبى.

☼ ☼ ☼

التمنى فى مقام الندم على الكفر والمعصية:

يأتى التمنى فى القرآن الكريم على ألسنة الكافرين مفيداً تحسر الكافر على كفره وضلاله، وندمه على معصيته وطغيانه فى حياته الدنيا، ولما كان الندم يقتضى أن يعمل الإنسان ما ينافيه، ولما

---

(١) البحر المحيط: جـ٧، صـ١٨١.

(٢) تفسير البيضاوى: جـ٦، صـ١٠٤.

(٣) روح المعانى: جـ١٥، صـ٢٨٣.

(٤) التحرير والتنوير: جـ١٥، صـ٣٢٧.

كانت الآخرة ليست بدار عمل لم يجد الكافر أمامه إلا عملا واحدا هو صرخة التمنى وإظهار الندم على الكفر والمعصية، فنراه يتمنى أن لو لم يفعل المعصية، وليته إذ فعلها لم يرها، وليته إذ رآها لم يعاقب عليها، ولننظر إلى ما جاء من الآيات مصورا حسرة الكافر فى مقام الندم على الكفر والمعصية.

قال –تعالى–: ({وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ، يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ)[١]

هذه الآيات الكريمة تصور مشهدا من مشاهد القيامة، وقد صُوِّر قبل هذه الآيات حال أهل السعادة وما هم عليه من الفرح والسرور والغبطة حين يأخذ كل واحد منهم كتابه بيمينه فيفرح ويسر بهذا اليمن وتلك الأعمال الطيبة.

أما أهل الشقاء فهذه الآيات تصور حالهم حين يُعطى كل واحد منهم كتابه بشماله فيحزن ويستاء ويندم ويتمنى أن لو لم يؤت كتابه، لما رأى فيه من شؤم الكفر والمعاصى التى اقترفها فى دنياه، وسجل القرآن الكريم هذا المشهد الأخروى؛ ليعلم أهل الحق مصير أهل الباطل، وفى ذلك سلوة لهم، ويعلم أهل الضلال مصيرهم فتقطع دونهم المعاذير[٢]

وأول ما يبدو فى هذه الآيات الكريمة بناء الفعل (أُوتى) للمفعول فى قوله –تعالى–: (وأما من أوتى كتابه بشماله)، وعدم ذكر المؤْتِى، لأن غرض الكلام لا يتعلق بالمؤتِى، وإنما الغرض منصب على إساءة المؤتَى وإذلاله، وأنه لا يستطيع رد ما يشينه. يقول البقاعى: "ولما كان الدّالّ على المساءة: الإيتاء على وجه قبيح لا تعيين المؤتِى قال بانيا للمفعول لذلك، وللدلالة على ذلّ الآخذ وعدم قدرته على الامتناع عن شىء يسوءه: (أُوتى)"[٣]

---

(١) الحاقة: ٢٥-٢٧.

(٢) ينظر: من أسرار النداء فى القرآن، صـ٢٧٢، ٢٧٣.

(٣) نظم الدرر: جـ٢٠، صـ٣٦٦.

وأخذ الكتاب بالشمال دلالة الشؤم وسوء المصير، ومن هنا فكل من أوتى كتابه بشماله يتمنى أن لو لم يؤت كتابه: (يا ليتنى لم أوت كتابيه) لأنه علم من قراءته أنه لا محالة إلى الجحيم صائر، يقول أبو حيان: "لما رأى فيه قبائح أفعاله وما يصير أمره إليه تمنى أنه لم يعطه"[١].

وجملة: (ولم أدر ما حسابيه) معطوفة على جملة التمنى قبلها، أى: ويا ليتنى لم أدر ما حسابيه، أى: لم أعرف كنه حسابى ونتيجته، وهذا وإن كان فى معنى التمنى الذى قبله ففى إعادته مزيد ندم وتحسر، يقول الجمل فى حاشيته: "والمعنى: ولم أدر عظم حسابى وشدته وشناعته، والمعنى: ولم أدر ما حقيقة حسابيه من ذكر العمل وذكر الجزاء"[٢].

ثم يتوالى صياح الكافر يوم القيامة فيقول: (يا ليتها كانت القاضية)، والضمير فى (يا ليتها) "للموتة، يقول يا ليت الموتة التى متها (كانت القاضية)، أى: القاطعة لأمرى فلم أبعث بعدها، ولم ألق ما ألقى، أو للحالة، أى: يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضت على، لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت وشدته فتمناه عندها"[٣]، يقول أبو حيان: "وكيف لا وأمره آل إلى عذاب لا ينقطع"[٤].

ولنمعن النظر تارة أخرى فى حال هؤلاء الأشقياء ساعة أن يعطى أحدهم كتابه فى العرصات بشماله ساعتها يندم أشد الندم، ولنتأمل كيف تتعالى نبرة الأسى والحزن حتى تصبح صيحات الندم أشبه بأصوات النائحات: (يا ليتنى لم أوت كتابيه، ولم أدر ما حسابيه، يا ليتها كانت القاضية) لقد تجاوبت صيغة التمنى التى تكررت مسبوقة بأداة النداء مع المد وزيادة هاء السكت فى (كتابيه) و (حسابيه) فى تجسيد الإحساس بالحسرة والندم.

أو كما يقول سيد قطب: "هى وقفة طويلة وحسرة مديدة ونغمة يائسة، ولهجة بائسة، والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهى إلى نهاية...،والرنة الحزينة

---

(١) البحر المحيط: جـ١٠، صـ٢٦١.

(٢) حاشية الجمل: جـ٤، صـ٣٩٩.

(٣) الكشاف: جـ٤، صـ٦٠٣، ٦٠٤.

(٤) البحر المحيط: جـ١٠، صـ٢٦٢.

الحسيرة المديدة فى طرف الفاصلة الساكنة وياء العلة قبلها بعد المد بالألف فى تحزن وتحسر: هى جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاء عميقاً"[١]

☼ ☼ ☼

ومن التمنى فى مقام الندم على الكفر والمعصية قوله –تعالى–: ({إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا)[٢] .

هاتان الآيتان الكريمتان تصوران موقفا من مواقف يوم القيامة يبدو فيه الكافر نادما متحسرا على ما اقترفه من كفر ومعصية وضلال، والآيتان تستهلان بهذا الخبر المؤكد: (إنا أنذرناكم عذابا قريبا) وهو خبر أريد به قطع عذر الكافرين الطغاة، لأن الإنذار معلوم لديهم يعرفونه لتكرره وتتابعه، فالغرض من هذا الخبر إلزام الكافرين الحجة وقطع عذرهم، والتأكيد يتلاءم مع أحوال الطغاة المنكرين لليوم الآخر وما فيه من عذاب منذر به، "وجعل المسند فعلاً مسندا إلى الضمير المنفصل، لإفادة تقوى الحكم"[٣]

والإنذار: الإبلاغ، ولا يكون إلا فى التخويف، والنذير: المحذر[٤]، والإنذار: الإخبار بما يسوء فى مستقبل قريب، وعبر عنه بالماضى، لأن أعظم الإنذار قد حصل بما تقدم من قوله –تعالى–: (إن جهنم كانت مرصادا، للطاغين مآبا...)[٥]، ووصف العذاب بالقرب (عذابا قريبا) إشارة لتحققه.

يقول البيضاوى: "وقربه، لتحققه، فإن كل ما هو آت قريب، ولأن مبدأه الموت"[٦]، ويقول الشهاب فى شرحه لكلام البيضاوى: "وقوله: (وقربه لتحققه) جواب عن سؤال مقدر تقديره: إذا فسر بعذاب الآخرة كيف يكون قريبا؟ فإما أن يجعل لتحقق وقوعه قريبا، لأن ما تحقق فى

---

(١) فى ظلال القرآن: جـ٦، صـ٣٦٨٢.

(٢) النبأ: ٤٠.

(٣) التحرير والتنوير: جـ٣٠، صـ٥٥.

(٤) لسان العرب: مادة (نذر) ، جـ٥، صـ٢٠٢.

(٥) النبأ: ٢١، ٢٢.

(٦) تفسير البيضاوى: جـ٨، صـ٣١١،

المستقبل يجعل قريبا بخلاف ما تحقق فى الماضى، ولذا قيل : ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت، أو يقال: البرزخ داخل فى الآخرة ومبدؤه الموت وهو قريب حقيقة إذ القرب والبعد من الأمور النسبية"[١]

والمرء فى قوله –تعالى–: (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) إما أن يراد به الإنسان فيكون اللفظ عاما يشمل المؤمن والكافر، وإما أن يراد به المرء الكافر، لقوله –تعالى–: (إنا أنذرناكم) فالإنذار يكون للكافر، أما المؤمن فله البشرى، وعلى الأول يكون الكافر فى قوله –تعالى–: (ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا) من باب ذكر الخاص بعد العام، حيث ذكر الكافر فى عموم المرء ثم ذكر بعد ذلك خاصا، ويكون تخصيصه بالذكر من عموم المرء متناسبا مع ما بنيت عليه السورة من إنذار منكرى البعث.

والغرض من ذكر الخاص بعد العام هنا: التنبيه على قبح فعل الكافر وسوء صنيعه، وعظم جرمه وسوء عمله، فما ذُكر منفردا بعد دخوله فى عموم المرء إلا لخصوصية فيه حتى كأنه ليس من جنس المرء بما انفرد عن سائر أفراد المرء بما اتصف به من الأوصاف السيئة حتى كأنه شىء آخر مغايرا لأفراد جنسه بحيث لا يشمله ذلك العام[٢]، وعلى هذا يكون فى ذكر قول الكافر دون قول المؤمن، دلالة على شدة ندمه وغاية تحسره، بينما حذف قول المؤمن ، لظهوره وبيانه إذ إنه حتما سيكون نقيض قول الكافر، يقول الألوسى: "وخُصّ قول الكافر دون المؤمن، لدلالة قوله على غاية الخيبة ونهاية التحسر، ودلالة حذف قول المؤمنين على غاية التبجح ونهاية الفرح والسرور"[٣] .

وعلى الثانى، أى القول بأن (المرء) يراد به الكافر يكون الكافر فى قوله –تعالى–: (ويقول الكافر) من وضع الظاهر موضع المضمر، ويكون الغرض من الإظهار فى موضع الإضمار: إبراز معنى الكفر وتقريره، لإفادة مقصد يقصد إليه النظم الحكيم وهو إبراز المنكر للبعث جاحدا كافرا متعنتا، وتصوير مدى ضلاله وتعاميه عن الحق الواضح، والإشارة إلى أنه قد استحق الإنذار بالعذاب بسبب

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوى: جـ٨، صـ٣١١.

(٢) ينظر: مواهب الفتاح: جـ٣، صـ٢١٧.

(٣) روح المعانى: جـ٣٠، صـ٣٧.

هذا الكفر، ففى الاسم الظاهر من وسم الكافر بهذه السمة الذميمة وإبرازه فى هذا الوصف المقيت ما لا يتحقق لولا الإظهار فى موضع الإضمار، يقول الزمخشرى: "(الكافر) ظاهر وضع موضع الضمير، لزيادة الذم"(١)

وفى قوله –تعالى–: (ما قدمت يداه) مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث أطلق لفظ اليدين وأريد الإنسان كله، أو جميع آلات أعماله وإنما خُصّت الأيدى بالذكر دون غيرها من الجوارح، لأن أكثر ما يُعمل كائن بها مستقلة به أو مشاركة فيه.(٢)

وأراد الكافر بأمنيته: (يا ليتنى كنت ترابا)، أى: "فى الدنيا فلم أخلق ولم أكلف، أو ليتنى كنت ترابا فى هذا اليوم فلم أبعث"(٣)، يقول ابن كثير: "يود الكافر يومئذ أنه كان فى الدار الدنيا ترابا، ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود، وذلك حين عاين عذاب الله ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدى الملائكة السفرة الكرام البررة.

وقيل إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التى كانت فى الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذى لا يجور حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كونى ترابا فتصير ترابا، فعند ذلك يقول الكافر: (يا ليتنى كنت ترابا) أى: كنت حيوانا فأرجع إلى التراب"(٤)

إننا حين نقرأ هاتين الآيتين: (إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا) نرى فرط الندم وشدة التحسر وطغيان الهلع الذى جعل الكافر يتمنى أن لو لم تكن له نفس تحس وعقل يعى، فينجو من هذا العذاب الشديد، حتى وصل به الأمر إلى حد يحسد معه التراب الذى كان يدوسه بقدميه، ولعلنا نلمس الحرص على إيثار التراب دون سواه من الجمادات، حيث هو منبت الإنسان وأصل خلقته، وكأنه يقول: ليتنى ظللت على ما كنت عليه ولم أخلق بشرا سويا، فالتمنى هنا ما هو إلا صرخة النادم المتحسر، ولطمة المفجوع اليائس.

---

(١) الكشاف: جـ٤، صـ٦٩١، وينظر: تفسير النسفى، جـ٤، صـ٣٢٨، وحاشية الشهاب: جـ٨، صـ٣١١.

(٢) ينظر: نظم الدرر: جـ٢١، صـ٢١٥، والتحرير والتنوير: جـ٣٠، صـ٥٧.

(٣) الكشاف: جـ٤، صـ٦٩٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم: جـ٤، صـ٤٦٦.

يقول ابن عاشور: "يتمنى الكافر أنه لم يخلق من الأحياء فضلا عن أصحاب العقول المكلفين بالشرائع، أى: يتمنى أن يكون غير مدرك ولا حساس بأن يكون أقل شيء مما لا إدراك له وهو التراب، وذلك تلهف وتندم على ما قدمت يداه من الكفر"[١] .

التمنى فى مقام الخوف من القول الفاضح :

قال –تعالى-: (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا)(٢) .

تصور الآية الكريمة حال مريم –عليها السلام– حين أتاها المخاض وحانت لحظة ميلاد عيسى –عليه السلام– فتراءت أمام عينيها أشباح مخيفة من صور الاتهامات التى ستطاردها بعد حين فيما يمس شرفها وعرضها فقالت –كما حكى القرآن عنها–: (يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا).

فهذا التمنى يجسد مشاعر الخوف من المستقبل بعد أن أظلم فى عينيها، وتزاحمت الرؤى المحزونة فى خواطرها، وتبدت لها أنياب البشر تنهش عرضها، وتتطاول على شرفها وعفتها.

وقابل –إن شئت– بين الذكر الفاضح وذيوع أمرها وشهرته، وبين أمنيتها أن يكون الموت قد أسدل عليها ستارا من النسيان حتى لا تمر بخاطر أحد، إنها أنفاس الحسرة وتأوهات المحزون خرجت فى صيغة التمنى.

والمتمنَّى هنا أمر مستحيل، لأنها تمنت موتها قبل ذلك الوقت، وكونها شيئا تافها لا قيمة له وهذا أمر محال، وإنما تمنته مع أنها كانت تعلم براءتها وعفتها، وتعلم أن الله معها مما جرى بينها وبين روح الله –عليه السلام– من الوعد الكريم، تمنته: حياء من الناس وخوفا من لائمتهم، وحذرا من وقوع الناس فى قالة السوء.

وقوله: (فأجاءها) بمعنى: اضطرها، يقال: لجأ إلى الشيء والمكان يلجأ لجْأً، وألجأه إلى الشيء: اضطره إليه[٣]، والمخاض: الطلق، وهو شدة الولادة وأوجاعها[٤]، والجذع: ساق النخلة

---

(١) التحرير والتنوير: جـ٣٠، صـ٤٦٦.

(٢) مريم: ٢٣.

(٣) لسان العرب: مادة (لجأ) ، جـ١، صـ١٥٢.

(٤) لسان العرب: مادة (مخض) ، جـ٧، صـ٢٢٨.

اليابسة فى الصحراء الذى لا سعف عليه ولا غصن[١]، ولهذا لم يقل: إلى النخلة، أما تعريف النخلة فيشعر بأنها كانت نخلة معروفة "لم يكن فى تلك البلاد الباردة غيرها فكانت كالعلم لما فيها من العجب، لأن النخل من أقل الأشجار صبرا على البرد، ولعلها ألجأت إليها دون غيرها من الأشجار –على كثرتها–، لمناسبة حال النخلة لها، لأنها لا تحمل إلا باللقاح من ذكور النخل ، فحملها بمجرد هزها أنسب شيء لإتيانها بولد من غير والد، فكيف إذا كان ذلك فى غير وقته؟ فكيف إذا كانت يابسة؟، مع ما لها من المنافع بالاستناد إليها، والاعتماد عليها، وكون رطبها خُرسة للنفساء، أى: طعام لها وغاية فى نفعها، وغير ذلك"[٢] .

ولما كان ذلك أمرا صعبا عليها كان كأنه قيل: ما كان حالها؟ فقيل: (قالت) بطريق الاستئناف البيانى، لأن السامع يتطلع إلى معرفة حالها عند وقت وضع حملها بعد ما كان أمرها مستترا غير مكشوف بين الناس، وقد آن أن ينكشف، فيجاب السامع: بأنها تمنت الموت قبل ذلك، فهى فى حالة من الحزن ترى أن الموت أهون عليها من الوقوع فيها، وهذا دليل على مقام صبرها وصدقها، فلذلك كانت فى مقام الصديقة[٣].

وقد ذكر الطاهر بن عاشور أن المشار إليه فى قوله –تعالى–: (قبل هذا): هو الحمل[٤]، وإن كنت أرى أن المشار إليه هنا هو كل ما جدّ لمريم –عليها السلام– من الحمل ،والبعد عن الناس،ومجيء المخاض بأوجاعه وآلامه...، فمن مزايا اسم الإشارة أنك تجده فى كثير من الأساليب يلخص الكلام إذ يستطيع به المتحدث أن يطوى جملا كثيرة دون حاجة إلى إعادتها، لأن اسم الإشارة

---

(١) لسان العرب: مادة (جذع) ، جـ٨، صـ٤٥.

(٢) نظم الدرر: جـ١٢، صـ١٨٧.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، جـ١٦، صـ٨٥.

(٤) التحرير والتنوير: جـ١٦، صـ٨٥.

يقوم مقام هذه الإعادة ويغنى عنها، واسم الإشارة هنا وما فيه من تلخيص لعبارات كثيرة يتناسب تمام التناسب مع ما فيه مريم –عليها السلام– من الحزن والخوف.

لقد تمنت أن تموت قبل كل هذا حتى لا يطعن الناس فى عرضها وحتى لا تجرّ على أهلها معرّة، ومن الملاحظ أنها لم تتمن أن تكون ماتت بعد بدو الحمل، لأن الموت حينئذ لا يدفع الطعن فى عرضها، ولا المعرة عن أهلها، إذ يشاهد أهلها بطنها بحملها وهى ميتة فتطرقها القالة، وهذا سرّ تقييد الموت بالقبلية.

والنسيان: ضد الذكر والحفظ، ، والنسيان: الترك، والنِّسى: الشيء المنسىُّ الذى لا يذكر، والنِّسى: خرق الحيض التى يرمى بها فتنسى، والنَّسى: ما نسى وما سقط فى منازل المرتحلين من رُزال أمتعتهم، وفى حديث عائشة –رضى الله عنها–: وددت أنى كنت نسيا منسيا، أى: شيئا حقيرا مُطّرحاً لا يلتفت إليه، وقال الأخفش: النسى ما أُغفل من شيء حقير ونسى[1]، والنسى: الشيء الحقير الذى من شأنه أن ينسى فلا يتألم لفقده، كالوتد والحبل للمسافر، وخرقة الطمث، وقال الفراء: النسى: ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها، فقول مريم –عليها السلام–: (نسيا منسيا)، أي: حيضة ملقاه.[2]

ووصف النسى بقوله –تعالى–: (منسياً) مبالغة فى نسيان ذكرها فهو نعت جيء به للمبالغة فى نسيانها، أى: ليتنى كنت شيئاً غير متذكر وقد نسيه أهله وتركوه، فلا يلتفتون إلى ما يحل به، فهى تمنت الموت وانقطاع ذكرها بين أهلها من قبل ذلك"[3]

وإنما تمنت ذلك لما عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة إذا بهتوها وطعنوا فى عرضها وهى عارفة ببراءة ساحتها.

---

(١) لسان العرب: مادة (نسا) ، جـ١٥، صـ٣٢٤.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، جـ٦، صـ٩٣، معانى القرآن للفراء، جـ٢، صـ١٦٤.

(٣) التحرير والتنوير: جـ١٦، صـ٨٦.

يقول الزمخشرى: "لأنه مقام دحض قلما تثبت عليه الأقدام: أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم، ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيبا يعاب به ويعنف بسببه"[١]

ويلاحظ أن التمنى هنا صحبه الخجل، لعفة المتمنية وطهرها، كما ينظر فيه إلى الحالة النفسية التى كانت عليها مريم –عليها السلام– فى هذا الموقف الصعب التى ستواجه فيه أهلها وغيرهم، ومراعاة النواحى النفسية فى مثل هذه الأساليب جانب بلاغى هام، لأن البلاغة تنظر إلى مظاهر النفس الإنسانية ومواهبها.[٢].

التمنى فى مقام الفرح بالمغفرة والتكريم:

قال –تعالى–: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ، اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ، وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ، إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ، قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)(٣) .

فالآيات الكريمة تصور حال ذلك الرجل الذى نصح قومه باتباع المرسلين، فلما ظلوا على كفرهم وعنادهم أعلن إيمانه صراحة بالمرسلين، فقتلوه، فأدخله الله –تعالى– الجنة، وغفر له، وجعله فى عداد المكرمين، ولا يزال بعد قتله ينصح لقومه ويرشدهم، فعندما علم بعاقبته السعيدة تمنى لو أن قومه يعلمون هذه العاقبة حتى تكون لهم حافزا على الإيمان والتصديق.

والآيات الكريمة تبدأ بسرد قصة ذلك الرجل ونصحه لقومه، قال –تعالى–: (وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى)، ولا يخفى ما فى تنكير المسند إليه (رجل) إذ القصد إلى إفادة أنه فرد غير معين من أفراد جنسه، فلا حاجة إلى تعريفه، ولا غرض من تعيينه، وإنما المراد أن يتيقظ القوم إلى عظيم الأمر المدعوون إليه، وأن يتنبهوا إلى غفلتهم عن أمر عظيم هو اتباع المرسلين، ولا يخفى ما

---

(١) الكشاف: جـ٣، صـ١٢، وينظر: محاسن التأويل للقاسمى، جـ١١، صـ٤١٣٤.

(٢) ينظر: من أسرار التعبير بالحروف المشبهة بالفعل، صـ١٣١.

(٣) يس: ٢٠–٢٧.

وراء التنكير من تعظيم المسند إليه وإعلاء شأنه، فقول كلمة الحق فى مثل هذه المجتمعات الكافرة لا يستطيعه إلا رجل عظيم الشأن جليل القدر.

ولعلنا نلحظ ما فى النظم الكريم من تقديم الجار والمجرور: (من أقصا المدينة) على الفاعل: (رجل)، وما يفيده هذا التقديم من زيادة فى تبكيت هؤلاء القوم وتوبيخهم، فقد كانوا قريبين من الرسل، وشاهدوا منهم ما لم يشاهده ذلك الرجل الذى كان فى أقصا المدينة، ومع ذلك فقد نصح لهم بما لم ينصحوا به أنفسهم.(١)

وقد نصح الرجل قومه باتباع المرسلين، قال –تعالى–: (قال يا قوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) ويا لجمال هذه النصيحة وبلاغة هذا النظم، فقد صدرت النصيحة بهذا النداء: (يا قوم)، وجاء النداء بـ(يا) الموضوعة لنداء البعيد، وفى هذا تنبيه على عظم الأمر الذى نودى من أجله وعلو شأنه، وفيه شدة حرص الناصح على امتثال قومه وسرعة مبادرتهم بالاستجابة، وفيه تنبيه لهم على غفلتهم عن الأمر العظيم الذى يقتضى اليقظة والانتباه، وكأن غفلة هؤلاء القوم جعلت الناصح يبعدهم عن ساحة الحضور، وينزلهم منزلة البعيد فيناديهم نداءه.

ولعلنا نلحظ ما فى إضافتهم لنفسه: (يا قوم) من تلطف وتودد إليهم، واستمالة لهم نحو الهدى وقبول الحق واتباع المرسلين، فهم قومه وأهله وعشيرته نشأ فيهم وترعرع بينهم ، ولا شك فى إمحاضه النصح لهم، إنه يتمنى لهم الخير والسعادة.

والغرض من الأمر فى قوله –تعالى–: (اتبعوا المرسلين) النصح والإرشاد، فهو ينصحهم باتباع المرسلين ويتمنى منهم السمع والطاعة، ولعلنا نلمح ما فى قوله –تعالى–: (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) من الترغيب فى اتباع المرسلين، حيث بين لهم أن المرسلين لا يسألونهم أجرا على تبليغ الرسالة، وهذا أدعى لاتباعهم وقبول ما جاءوا به.

وتأمل ما بين الجملتين: (اتبعوا المرسلين)، و (اتبعوا من لا يسألكم أجرا) من اتصال معنوى أدى إلى فصل ظاهرى، حيث فصلت الجملة الثانية عن الأولى، لما بينهما من كمال الاتصال المتحقق من كون الجملة الثانية منزلة من الأولى منزلة بدل الاشتمال، والمعنى المسوق له الكلام هو: حمل المخاطبين على اتباع الرسل، ولا شك أن الجملة الثانية أوفى بتأديته من الأولى، ولذلك جىء

---

(١) د/ بسيونى فيود: علم المعانى، جـ١، صـ٢٥٧.

بها حيث إن المقام يقتضى الاعتناء بشأن هذا المراد لغرض، وهو كونه مطلوبا فى ذاته، وإنما كانت الثانية أوفى من الأولى فى تأدية المراد، لأن معناها: لا تخسرون معهم شيئا من دنياكم، وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خير الدنيا والآخرة.(١)

ثم تأمل الإيغال –وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها–(٢) فى قوله –تعالى–: (وهم مهتدون) وهو إيغال حسن، إذ المعنى قد تم بدونه، لأن الرسل مهتدون لا محالة، والغرض من هذا الإيغال: هو زيادة الترغيب، والحث على اتباع الرسل والاقتداء بهم.(٣)

ولا يخفى ما فى هذا الالتفات البديع من التكلم إلى الخطاب فى قوله –تعالى–: (ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون) ففضلا عما يفيده أسلوب الالتفات من تحريك وإثارة وإيقاظ لمشاعر السامع وأحاسيسه، وتنبيه لذهنه وفكره، لما فيه من التنويع وعدم المضى على وتيرة واحدة –فضلا عن ذلك– فإنك تشعر بما وراءه فى الآية الكريمة من ترغيب للقوم واستمالة لهم نحو الهدى وقبول الحق واتباع المرسلين، حيث أجرى الرجل التعجب من عدم العبادة على نفسه: (ومالى لا أعبد)، حتى لا ينفروا من قبول النصح.

إن الرجل يستميل قومه لاتباع المرسلين بطرق شتى، لقد أضافهم إلى نفسه فهم قومه وعشيرته، لا شك أنه يخلص النصح لهم، ثم بين لهم أن المرسلين لا يسألونهم أجرا على تبليغ الرسالة، وهذا أدعى لاتباعهم وقبول ما جاءوا به، ثم هم فوق ذلك مهتدون، فينبغى الاقتداء بهم، ولما أراد أن يتعجب من تخلى القوم عن الرسل وترك الاقتداء بهم فى عبادة الله وحده أجرى هذا التعجب على نفسه ملتفتا عنهم: (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) حتى يكون فى ذلك مزيد من الاستمالة والترغيب، ثم التفت إليهم محذرا من استمرارهم فى الباطل وتماديهم فى الضلال، ومبينا لهم أن

---

(١) ينظر: د/ بسيونى فيود، علم المعانى، جـ١، صـ٢٥٧.

(٢) ينظر: الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى، جـ٢، صـ٧٤، والصناعتين، لأبى هلال العسكرى، صـ٣٩٥، والطراز، للعلوى، جـ٣، صـ١٣١، والإيضاح، للقزوينى، جـ٣، صـ٣٠٥، ٣٠٧، والمصباح، لبدر الدين بن مالك، صـ٢٣٠.

(٣) ينظر: شروح التلخيص، جـ٣، صـ٢٢٤.

مرجعهم إلى الله الذى فطرهم: (وإليه ترجعون)، وبهذا يتضح ما وراء هذا الالتفات من ترغيب واستمالة، ثم التعقيب بالتحذير الشديد.

والاستفهام فى قوله –تعالى–: (أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون) يصور حال ذلك الرجل الناصح لقومه، وكيف أنه يتلطف فى نصحه، ليستميل قومه نحو الهداية، فلم يتوجه بالإنكار إليهم مباشرة، وإنما أجرى الإنكار على نفسه: إنكار أن يتخذ من دون الله آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تشفع ولا تنقذ من العذاب، إنه ينكر على نفسه ويستبعد أن ينزلق فى هذا الضلال. ولا يخفى ما فى الآية من التعريض، إذ المراد: أتتخذون من دونه آلهة إن يردكم الرحمن بضر لا تغنى عنكم شفاعتهم شيئا ولا ينقذونكم إنكم إذا لفى ضلال مبين...، وإجراء الآية على التعريض فيه ترغيب لهؤلاء فى قبول الحق واستمالة لهم نحو الهداية والإيمان بالله وحده، لأنه ترك التصريح بنسبتهم إلى الباطل والضلال ومحض النصح لهم حيث لم يرد لهم إلا ما يريده لنفسه[1]، ثم ها هو ذا يعلن الإيمان صراحة: (إنى آمنت بربكم فاسمعون)، لقد صاغ خبر إيمانه مؤكدا كما أحسه حيث نظر الرجل إلى حال نفسه ومدى انفعاله بالإيمان الذى ينصح له فحرص على إعلانه ونقله إلى غيره مؤكدا كما أحسه مؤكدا مقررا.

وفى تعقيب العظة بالأمر بدخول الجنة فى قوله –تعالى–: (قيل أدخل الجنة) إفادة بدلالة الاقتضاء على أنهم قتلوه، لمخالفته دينهم، ومن هنا فالأمر بدخول الجنة كناية عن قتله شهيدا فى إعلاء كلمة الله –تعالى–، وإنما سلك فى هذا المعنى طريق الكناية ولم يصرح بأنهم قتلوه، إغماضا لهذا المعنى عن المشركين، كى لا يسرهم أن قومه قتلوه فيطمعوا فى قتل الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وهذه الكناية لا يفهمها إلا أهل الإسلام الذين تقرر عندهم التلازم بين الشهادة فى سبيل الله ودخول الجنة.[2]

وبنى الفعل: (قيل) للمفعول، لأن القول هو المقصود الأهم، والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لما ينتظره سامع القصة من معرفة ما لقيه الرجل من قومه بعدما واجههم بتلك النصيحة

---

(١) ينظر: الإيضاح، جـ١، صـ١٩٦.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، جـ٢٢، صـ٣٧٠، ٣٧١.

الجريئة، وهل استجابوا لنصحه أم أعرضوا عنه أم آذوه كما يؤذى أمثاله؟، فأجيب بما دل عليه قوله: (قيل ادخل الجنة)، وهو الأهم عند المسلمين، ليزدادوا يقينا وثباتا. يقول الزمخشرى: "فإن قلت كيف مخرج هذا القول فى علم البيان؟ قلت: مخرجه مخرج الاستئناف، لأن هذا من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه بعد ذلك التصلب فى نصرة دينه والتسخى لوجهه بروحه؟ فقيل: (قيل ادخل الجنة)، ولم يقل: قيل له، لانصباب الغرض إلى القول وعظمه، لا إلى المقول له مع كونه معلوما"[(١)]

وقوله –تعالى–: (قال يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) مستأنف استئنافا بيانيا كالذى قبله، لأن السامع يترقب: ماذا قال حين غمره الفرح بدخول الجنة؟ فقيل: (قال يا ليت قومى يعلمون...) تمنى أن يعلم قومه بما أعطاه الله –تعالى– من المغفرة وجزيل الثواب، ليرغبوا فى مثله فيؤمنوا فينالوا المغفرة والإكرام، وما تمنى هلاكهم ولا الشماتة بهم بل تحلى بالحلم عن أهل الجهل، وذلك لأن الآخرة لا تتوجه فيها النفوس إلا إلى الصلاح المحض.

يقول الزمخشرى: "وإنما تمنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سببا لاكتساب مثلها لأنفسهم بالتوبة عن الكفر والدخول فى الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة، وفى حديث مرفوع : نصح قومه حيا وميتا، وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه فى غمار الأشرار وأهل البغى والتشمر فى تخليصه والتلطف فى افتدائه والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام؟".[(٢)]

۞ ۞ ۞

ثانيا: المُتَمَنَّى الممكن المستبعَد :

---

(١) الكشاف: جـ٤، صـ١١.

(٢) الكشاف: جـ٤، صـ١١.

من الآيات التى جاء فيها التمنى ممكنا ولكنه مستبعد فى نفس قائله قوله –تعالى–: (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)[١].

فالآية الكريمة تصور ما كان فيه قارون من زخرف الدنيا ونعيمها، فقد "خرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة وتجمل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أُعطى، فقالوا: (يا ليت لنا مثل ما أُتى قارون إنه لذو حظ عظيم) أى: ذو حظ وافر من الدنيا"[٢]

والفاء فى قوله –تعالى–: (فخرج على قومه...) عاطفة على قوله –تعالى: (وآتيناه من الكنوز...)إلى آخرها مع ما عطف عليها وتعلق بها، فدلت الفاء على أن خروجه بين قومه فى زينته بعد ذلك كله كان من أجل أنه لم يقصر عن شىء من سيرته ولم يتعظ بتلك المواعظ ولا زمنا قصيرا، بل أعقبها بخروج هذه الخرجة المليئة صلفا وازدهاء، فالتقدير: قال إنما أُوتيته على علم عندى فخرج على قومه، أى : رفض الموعظة بقوله وفعله، وعُدِّى الفعل (خرج) بحرف الجر (على)، لتضمنه معنى النزول، وفيه إشارة إلى أنه خرج متعال مترفع.[٣]

والزينة: ما يتزين به، ويوم الزينة: العيد، والزينة: اسم جامع لما تُزيِّن به[٤]، والزينة: ما به جمال الشىء والتباهى به من الثياب والطيب والمراكب والسلاح والخدم...، وهى مما يتمناه الراغبون فى الدنيا، وهى جامعة لأحوال الرفاهية، والذين يريدون الحياة الدنيا لهم ميول مختلفة ورغبات متفاوتة، فكل واحد يتمنى أُمنية مما تلبس به قارون من الزينة.

والذين يريدون الحياة الدنيا لما قُوبلوا بالذين أُوتوا العلم فى قوله –تعالى–: (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)[٥]: كان المعنىُّ

---

(١) القصص: ٧٩.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ٣، صـ٤١٤.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، جـ٢٠، صـ١٨٢، ١٨٣.

(٤) لسان العرب: مادة (زين) ، جـ١٣، صـ٢٠٢.

(٥) القصص: ٨٠.

بهم، عامة الناس وضعفاء اليقين الذين تلهيهم زينة الدنيا عما يكون فى بواطنها من سوء العواقب فتقصر بصائرهم عن التدبر إذا رأوا زخارف الدنيا يتلهفون عليها ويتمنون حصولها، فهؤلاء عظم فى عيونهم ما عليه قارون من البذخ فقالوا: (إنه لذو حظ عظيم) أى: إنه لذو بخت وحظ وسعادة.(١)

وجملة: (إنه لذو حظ عظيم) تعليل لتمنيهم وتأكيد له، ويلا حظ أن الجملة أُكدت بأكثر من مؤكد {إن، واللام، واسمية الجملة}، تأكيداً لرغبة المتمنِّين الذين يرغبون فى الوصول إلى ما وصل إليه قارون من حظ دنيوى عظيم، ولا يبعد أن يكون هذا التأكيد فى مواجهة أهل العلم الذين ينكرون أن يكون هذا حظا عظيما لقارون، يقول البقاعى: "ثم عظموها بقولهم مؤكدين لعلمهم أن من يريد الآخرة ينكر عليهم".(٢)

وقول الذين يريدون الحياة الدنيا: (يا ليت لنا مثل ما أُتى قارون) قالوه غبطة، "والغابط: هو الذى يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه، والحاسد: هو الذى يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه"(٣)، يقول البيضاوى: "تمنوا مثله لا عينه، حذرا من الحسد".(٤)

والمتمنى هنا ليس أمرا مستحيلا، وإنما هو مستبعد فى نفس قائليه، لأن الأسباب لم تكن متوفرة لديهم حتى يصلوا إلى تلك الدرجة من الغنى والثراء، فهم بذلك نزلوا المكن منزلة المستحيل، لما يتراءى لهم، يقول الدكتور/ بسيونى فيود: "تقول فى تمنى الشىء المحبوب الذى يمكن حصوله ولكنه غير مطموع فيه لبعد مناله: ليت لى مالا فأحج منه، ليتنى ألقى فلانا فأنتفع بعلمه، والبعد هنا بعد نفسى مرده إلى شعور النفس وإحساسها بذلك الشىء، وقد لا يكون بعيدا بالنسبة للواقع أو العرف أو العقل، ومن ذلك قوله -تعالى-: (فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أُتى قارون إنه لذو حظ عظيم) فقد تمنوا أن يكون لهم مثل

(١) ينظر: التحرير والتنوير، جـ٢٠، صـ١٨٣.

(٢) نظم الدرر: جـ١٤، صـ٣٥٦.

(٣) الكشاف: جـ٣، صـ٤٣٢.

(٤) تفسير البيضاوى: جـ٧، صت٨٧.

تلك الكنوز التى تنوء مفاتحها بالعصبة أُلِى القوة، وهى أُمنية محببة لنفوسهم وليست مستحيلة، بل هى ممكنة الوقوع، ولكنهم لا يطمعون فيها لبعد منالها".[١]

إنهم يتمنون شيئا ممكنا ، ولكنه فى نظرهم بعيد المنال، يقول الزمخشرى: "كان المتمنون قوما مسلمين، وإنما تمنوه على سبيل الرغبة فى اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر، وعن قتادة: تمنوه ليتقربوا به إلى الله وينفقوه فى سبيل الخير، وقيل: كانوا قوما كفاراً"[٢]

☼ ☼ ☼

وبعد: فقد تنوع التمنى بـ(ليت) فى الذكر الحكيم مصورا أحوالا نفسية متباينة ومبرزا حاجات النفوس ورغباتها، فبينما نراه على ألسنة المنافقين فى الدنيا يبثون فيه لهفتهم على فوات المال وحزنهم على ضياعه، نجده على ألسنة الكافرين فى الآخرة متحسرين على ما وقعوا فيه من صحبة قرناء السوء من شياطين الإنس والجن، ثم يعلو صياحهم بتمنى الرد إلى الدنيا نادمين على فوات الطاعة ووقتها....، إلى غير ذلك من أمانيهم التى تصل فى نهايتها إلى تمنيهم أن لو كانوا ترابا لم يخلقوا ولم يبعثوا.

وبينما نجد التمنى يصور أحوال المنافقين والكافرين تصويرا دقيقا يبرز مدى ندمهم وحسرتهم على ما فاتهم رهبة وهلعا مما ينتظرهم، نجده ينتقل بنا إلى النفوس المؤمنة مصورا ما يجول فيها من أحاسيس متنوعة ما بين الخوف والفرح والرغبة، فهذه مريم –عليها السلام– عند حملها بعيسى –عليه السلام– تتراءى أمام عينيها صور الاتهامات التى تمس شرفها وعرضها، فتتمنى أن لو كان الموت قضى عليها قبل هذا، وأن لو كان الزمان أسدل عليها ستارا من النسيان، وهذا رجل مؤمن ينصح قومه بما لم ينصحوا به أنفسهم، فيقتلوه، فيدخله الله الجنة، ويغفر له ، ويجعله من المكرمين، فيتمنى أن لو علم قومه بمغفرة الله –تعالى– له، وإكرامه مما يكون دافعا لهم للإيمان واتباع المرسلين، وهؤلاء أناس أخذت الدنيا بمجامع قلوبهم فتمنوا أن لو كان لهم مثل ما

---

(١) علم المعانى: جـ٢، صـ١٥٦، ١٥٧.

(٢) الكشاف: جـ٣، ص٤٣٢.

لقارون من المال والزينة، وهكذا جاء التمنى بـ(ليت) فى الذكر الحكيم مصورا لرغائب النفوس ومشتهياتها فى أسلوب بلاغى معجز، والله أعلى وأعلم.

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على من ختمت به الرسالات سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه.....، وبعد

فقد تناول البحث فى رحلته التحليل البلاغى لأسلوب التمنى بـ (ليت) فى الذكر الحكيم، بما يكشف عن خصائصه اللغوية، وأسراره البلاغية.

وقد بدأ البحث بمقدمة فيها أهمية الموضوع والدافع إليه، ثم المبحث الأول: وفيه مفهوم التمنى وقيمته البلاغية، ثم المبحث الثانى: وفيه الآيات القرآنية التى جاء التمنى فيها بأداته الموضوعة أصالة له وهى (ليت).

وبعد هذه الرحلة العطرة فى رحاب هذا البحث (من بلاغة التمنى بـ(ليت) فى الذكر الحكيم)، نقف؛ لنرصد الحقائق التالية:

التمنى فى الذكر الحكيم نهج متميز فى بنائه المحكم، وصياغته الدقيقة التى تقوم على الإيجاز البديع، بطىِّ التفصيلات التى لا يتعلق بها غرض؛ إعتمادا على السياق ووحى الألفاظ؛ وهذا راجع إلى أن التمنى طلب نفسى يصف آمالا حبيسة، ورغائب لا سبيل إلى تحقيقها، ولو كانت هذه الرغائب ممكنة فإنها عند المتمنِّى وفى حس نفسه مما يبعد تحقيقها، وهذه الرغائب وتلك الآمال غالبا ما يصحبها ضيق المقام أو ضيق النفس مما يجعل الأمانى موجزة العبارات دقيقة الصياغة.

التمنى فى الذكر الحكيم من الأساليب التى تصور الحالة النفسية للمتمنِّى، والأغراض التى يرمى إليها، من الشكوى والاستعطاف والاعتذار، وما يجده من راحة النفس، فما التمنى سوى زفرات يطلقها مهموم يائس، ونفثات مصدور يروح بها عن نفسه.

التمنى فى الذكر الحكيم يتنوع؛ تبعا لتنوع الناطقين به، فتارة يأتى على ألسنة المؤمنين، وتارة يأتى على ألسنة الكافرين، وتارة يأتى على ألسنة المنافقين، وتارة يكون من أمانى الدنيا، وتارة يكون من أمانى الآخرة، وأكثره ورودا ما كان على ألسنة الكافرين يوم القيامة.

تعددت مظاهر التنوع فى مطلوب أصحاب الأمانى، فتارة تتعلق أمانيهم بما مضى زمانه وفات وقته، فتكون محالة الحصول، وتارة تتعلق بالحال والاستقبال، فتكون فى نظر أصحابها

بعيدة المنال، وهى عندما تكون محالة ، تكون ندما على مخالفة الرسل وفوات وقت الطاعة، أو ندما على فوات المال وهلاكه، أو خوفا من المنتظر القريب ، أو فرحا بالجنة والإكرام...، إلى غير ذلك من الأمانى الكثيرة المتنوعة.

هناك طرق للتمنى غير (ليت) كالاستفهام والشرط والترجى....وغير ذلك وهى كثيرة فى البيان القرآنى وتحتاج الى جهد لتتبعها وتنسيقها وتحليلها وبيان أسرارها، وأنا عازم ـ ان شاء الله ـ على ذلك فأسأل الله التوفيق والسداد فيما قصدت.

وبعد: فهذا جهدى فيما قصدت إليه من الكشف عن بلاغة التمنى فى الذكر الحكيم، فإن كنت قد أصبت ووفقت فيما قصدت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن تكن الأخرى فحسبى أننى بذلت جهدى قدر طاقتى، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، والكمال لله وحده، وصدق القائل:

من الذى ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

وفى الختام نتوجه إلى الله العلى القدير أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين).

الدكتور
إبراهيم حسن أحمد
أستاذ البلاغة والنقد المساعد فى كلية
الدراسات الإسلامية والعربية للبنين فرع
جامعة الأزهر بدقنا

أهم المصادر والمراجع

ـ الإتقان فى علوم القرآن ـ السيوطى، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.

ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا لكتاب الكريم ـ أبو السعود العمادى، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

ـ أسباب النزول ـ أبو الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى، تحقيق/ أيمن صالح شعبان، الطبعة الرابعة، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

ـ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، ت لجنة من الأدباء، الدار التونسية للنشر،١٩٨٣م.

ـ الأقصى القريب فى علم البيان ـ محمد بن محمد بن عمرو التنوخى، طبعة السعادة، ١٣٢٧ هـ .

ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ القاضى البيضاوى، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

ـ الإيضاح شرح تلخيص المفتاح ـ الخطيب القزوينى، تعليق/ عبد المتعال الصعيدى، طبعة محمد على صبيح، القاهرة، ١٣٩٢هـ .

ـ البحر المحيط ـ أبو حيان الأندلسى، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

ـ التحرير والتنوير ـ سماحة الشيخ/ الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ.

ـ التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم، للدكتور/ عبد العظيم المطعنى، ط أولى، مكتبة وهبة، القاهرة .

ـ تفسير القرآن العظيم ـ أبو الفداء بن كثير القرشى الدمشقى، دار الريان للتراث، القاهرة.

ـ جامع البيان عن تأويل آى القرآن ـ ابن جرير الطبرى، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٥.

ـ الجامع لأحكام القرآن ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، دار الريان للتراث، القاهرة، بدون تاريخ.

ـ الجنى الدانى فى حروف المعانى ـ الحسن بن القاسم المرادى،تحقيق فخر الدين قباوة، والأستاذ/ محمد نديم فاضل، المطبعة الصليبية.

ـ حاشية الدسوقى على المختصر (ضمن شروح التلخيص) دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.

ـ حاشية السيد على المطول ـ السيد الشريف الجرجانى، مطبعة أحمد كامل، القاهرة، ١٣٣٠هـ .

ـ خصائص التعبير فى القرآن وسماته البلاغية ـ الدكتور/ عبد العظيم المطعنى، مكتبة وهبة، القاهرة.

ـ دلالات التراكيب، الدكتور/ محمد أبو موسى، الطبعة الثانية،مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

ـ دلائل الإعجاز، الشيخ عبد القاهر الجرجانى، تحقيق/ محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، وآخر: تحقيق/ محمود شاكر، طبعة الخانجى، القاهرة.

ـ ديوان المتنبى / ٢٢٥، المكتبة الثقافية، بيروت

ـ ديوان على بن الجهم، ت خليل مردم بك، ط الثالثة، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م

ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ـ السيد محمود الألوسى البغدادى، دار الفكر بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

ـ الصناعتين ـ أبو هلال العسكرى، تحقيق/ على البجاوى، ومحمد أبو الفضل، طبعة عيسى الحلبى، القاهرة، ١٩٧١م.

ـ الطراز ـ يحيى بن حمزة العلوى، دار الكتب، بيروت.

ـ عروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح ـ بهاء الدين السبكى، (ضمن شروح التلخيص)، طبعة دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.

ـ علم المعانى ـ الدكتور/ بسيونى عبد الفتاح فيود، الطبعة الأولى، ١٤٥٨هـ ١٩٨٨م.

ـ علم المعانى ـ الدكتور/ عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

ـ علم المعانى ـ الدكتور/ فريد محمد بدوى النكلاوى وآخرون، بدون ناشر.

ـ عناية القاضى وكفاية الراضى ـ شهاب الدين الخفاجى، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

ـ عيون الأخبار لابن قتيبة، شرح د/ مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت.

ـ الفتوحات الإلهية ـ سليمان بن عمر العجيلى ا لشهير بالجمل، مطبعة عيسى الحلبى، القاهرة.

ـ فى ظلال القرآن ـ الشهيد سيد قطب، دار الشروق القاهرة.

ـ القاموس المحيط ـ محمد بن يعقوب الفيروزابادى، دار العلم للجميع، بيروت بدون تاريخ.

ـ الكشاف ـ أبو القاسم جار الله الزمخشرى، دار الكتاب العربى، بيروت، بدون تاريخ.
ـ لسان العرب ـ جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت.
ـ مجمع البيان ـ الطبرسى، دار المعرفة، بيروت.
ـ محاسن التأويل ـ محمد جمال الدين القاسمى، تعليق/ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبى، القاهرة.
ـ المختصر على التلخيص ـ سعد الدين التفتازانى، (ضمن شروح التلخيص)، دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.
ـ المطول على التلخيص ـ سعد الدين التفتازانى، مطبعة أحمد كامل، ١٣٣٠.
ـ معانى القرآن ـ أبو زكريا الفراء، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
ـ معجم البلاغة العربية ـ الدكتور/ بدوى طبانة، منشورات جامعة طرابلس، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ـ محمد فؤاد عبد الباقى، مطابع الشعب، القاهرة.
ـ مفتاح العلوم ـ أبو يعقوب السكاكى، مطبعة: مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٣٥٦هـ ١٩٢٧م.
ـ من أسرار التعبير بالحروف المشبهة بالفعل ـ الدكتور/ هاشم محمد هاشم،الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.
ـ من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم ـ الدكتور/ محمد الأمين الخضرى، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.
ـ من أسرار النداء فى القرآن ـ الدكتور/ بغدادى ابراهيم الصحابى، ط مركز الانتاج والتدريب الصناعى.
ـ مواهب الفتاح شرح تلخيص المفتاح ـ ابن يعقوب المغربى، (ضمن شروح التلخيص)، دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.
ـ نداء غير العاقل فى القرآن ـ الدكتور/ أبوزيد محمد أحمد شومان، مطبعة الأمانة ١٤١٧ـ ١٩٩٧ط.
ـ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ـ البقاعى، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، بدون تاريخ.